حديث مع الغرب

www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

www.abulhasanalinadwi.org

أبو الحسن علي الحسني الندوي

حديث مع الغرب

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٦٣١٧ - بيروت

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

www.abulhasanalinadwi.org

تقديم

بقلم الأستاذ محمد الحسني
رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامي »

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، !

كانت نهضة أوربا ، واستيلاؤها — فكرياً وسياسياً واقتصادياً — على العالم المعاصر ، حادثاً كبيراً بالنسبة للعالم الإسلامي ، الذي لم يعد نفسه لمواجهة هذا الواقع المفاجىء ، وبات في سبات عميق ، لم يحسب لهذه الأخطار المحدقة حساباً ، ولم يعر لهذه العاصفة الفكرية الشديدة التي بدأت تهب من الغرب عناية وانتباها ، حتى اذا هجمت عليه ، وجاست خلال دياره ، وتمكنت في عقر داره ، وجد نفسه بين موقفين .

الموقف الأول ، هو موقف المستسلم الخاضع ، والمقلد

www.abulhasanalinadwi.org

الأعمى ، والتلميذ البار . والموقف الثاني ، هو موقف المعادي المخاصم ، أو موقف المفتوح المقهور ، الذي لا يريد إلاّ الثأر ، ولا يعرف لذة غير لذة الإنتقام ، ولا يرى في عدوه أي وجه من وجوه الخير ، ولا أي جانب من جوانب الكمال .

وكان لكل موقف أتباع وأنصار عرفوا بميولهم واتجاهاتهم ومناهجهم ، وأساليبهم ، فأصبح الموقف الأول شعار المستسلمين الخاضعين ، المؤمنين بالغرب أشد الإيمان ، والمتغنّين بمجده وعظمته في أجمل النغمات والألحان[1] . وأصبح الموقف الثاني شعار القادة السياسيين ، والزعماء الوطنيين الحانقين الساخطين ، الثائرين الموتورين [2] .

أما رجال الموقف الأول ، فكانوا أصحاب فكر محدود ، وعقلية قاصرة لا تتعدى خطها المرسوم ، وحدها المعلوم ، ولا تنظر إلى أفق أوسع ، أو غاية أسمى ، ولا ترى إلاّ إلى ما فاق فيه الغرب أقرانه من مظاهر القوة ، أو أسباب الراحة والترف ،

---

(١) ترى أنموذج هذا الأسلوب الأدبي ، والمنهج الفكري في كتابات المرحوم السيد أحمد خان ، زعيم حركة التعليم الحديث في الهند ، وأصحابه وتلاميذه ، وفي كتابات رفاعة الطهطاوي بك ، وقاسم أمين وأضرابهما في مصر .

(٢) يمثل ذلك مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني ، ومقالات العروة الوثقى .

www.abulhasanalinadwi.org

وترى أنّ الإيمان بصلاحية الغرب للحكم والقيادة ، وتوجيه ركب الحضارة حقيقة لا ينبغي أن نكابر فيها ، أو نتجاهلها ، وان انتصار الغرب على الشرق حكم القدر ، وناموس الكون ، وتدرج التاريخ ، لا فائدة من مواجهته ومقاومته ، أومقارعته بالحجة والبرهان ، أو بالسيف والسنان ؛ ولا بد لنا من الخضوع أمامه ، وقبوله على علاته — إذا كانت له علات — .

إن رجال هذا الموقف يؤمنون بأن الغرب يفوقنا في كل شيء ، لا في الصناعة والآلة ، والتنظيم والإدارة فحسب ، بل في الثقافة والحضارة كذلك ، انهم آمنوا بغاياته وأهدافه ، وآدابه وثقافاته ، ومذاهبه الفكرية ، والأدبية والسياسية ، والإجتماعية ، كما آمنوا بوسائله ، وأسبابه ، وماكيناته وأدواته وعلومه التطبيقية والصناعية والآلية ، فكانت عاقبة ذلك انهم لم يرجعوا منه بشيء ، وخسروا كل شيء ، خسروا منبع قوتهم ، وسر حياتهم وغاية وجودهم ، ولذة كفاحهم ، الدين ، وفاتتهم الصناعة ، ومايمتاز فيه الغرب من منابع القوة والسيادة ، فرجعوا بخفّي حنين ، لا دين ولا علم ، ولا وسيلة ولا غاية ، بل تقليد ومحاكاة واستسلام وانقياد ، وخضوع وخنوع ، ورضوا بما يلقى إليهم من فتات المائدة ومزدول الطعام .

إنهم ينظرون إلى الغرب كما ينظر تلميذ إلى أستاذه ومعلّمه ، يتلقى دروسه بصبر وأناة ، ويتلقى توجيهاته ، ودروسه بجد

www.abulhasanalinadwi.org

واجتهاد ، ثم يرددها ويستحضرها آناء الليل وأطراف النهار ، وهذا موقف لا محل فيه للنقد والتوجيه ، والروية والتفكير ، ولا يجوز فيه المناقشة والجدال ، مناقشة النّد للنّد ، وجدال الفريق للفريق ، فلا غرابة إذا لم نر من بين هؤلاء من يترفع عن هذا المستوى ، ويلقى الغرب وجهاً لوجه ، ويقابله على صعيد العلم والفكر ، وعلى صعيد المساواة والشرف ، والإعتداد بالنفس ، والإعتزاز بما عنده من دين وأخلاق .

أما رجال الموقف الثاني ، فبدوا عاطفيين ، ثائرين نحو هذه المشكلة ، - مشكلة الغزو الفكري للغرب ، واستيلائه السياسي - وتكدست جهودهم في غالب الأحوال على محاربته سياسياً أو عسكرياً ، إنهم لم يحاولوا ، أن يعرفوا عدوهم ، ويطلعوا على دخائله وأسراره ، وسيآته وحسناته ، وجوانب القوة والضعف فيه ، ولم يفرقوا بين ما يفوق فيه علينا من علوم وصناعة وسلاح ؛ فيستفيدوا به ، وما يفتقر فيه من أهداف كريمة ، وعقائد سليمة ، ودوافع نبيلة ، ورسالة نقية صافية ، حتى يفيضوا عليه شيئاً مما آتاهم الله .

وكانوا حانقين عليه ، كارهين له ، بدلاً من أن يكونوا حريصين على انقاذه متوجهين لمصيره ونهايته المتوقعة الأليمة ، ورأوا في الغرب الظافر المنتصر ، محتلًا لأرضهم ، غاصباً لأملاكهم ناهباً لأموالهم . أكثر من أن يروا فيه محتلًا لمعتقداتهم ،

www.abulhasanalinadwi.org

غاصباً لإيمانهم ، ناهباً تراثهم الإسلامي ودعوتهم العامة الخالدة، الصافية الطاهرة ، الحنيفية البيضاء التي لا تعرف التنازل والمساومة والإستسلام ، ولا تنسجم مع المفاهيم الجاهلية ايمّا انسجام .

فكانت النتيجة أن وجد الغرب سبيله إلى الإحتلال الفكري، ورأى نفسه حراً لبثّ سمومه في الجيل الجديد ؛ والشباب الجامعي المثقف ، والبعثات الخارجية ، والوفود السلمية ، ورجال الصحافة والأدب ، من غير أن يدركوا خطره ، ويفهموا حقيقة معركته ومكان رميته ، ونوع سلاحه ، فضلاً عن أن يقفوا في وجهه وقفة الحرّ الكريم ، والأستاذ الخبير العليم ، ويفكروا في مدّ يد الغوث والنجدة إليه ، وانقاذه من الهوة العميقة التي تورّط فيها ، والمستنقع الذي يغوص فيه إلى أذنه .

فبينما اندمج الأول في هذا الخضم من الأفكار الغربية ، وتياراتها السياسية والإجتماعية ، حاول الثاني أن يعبره من غير أن يتعلم السباحة ، ويطلع على العمق والمساحة .

وبجانب هذين الموقفين المتطرفين موقف آخر ، هو موقف المتأمل الدارس الذي لا ينكر الغرب برمته ، ولا يقبله على علاته ، ولا يخلط بين ما أنتجه من وسائل لإسعاد هذه الحياة ، وما اخترعه من مذاهب باطلة ، وثقافات سخيفة ، وآداب مبيدة للدين والأخلاق، والمبادىء الإنسانية الكريمة ، والصفات النبيلة.

www.abulhasanalinadwi.org

إن أصحاب هذا الموقف لا يعتبرون ما جاء به الغرب شراً محضاً ، أو خيراً محضاً ، فلا يستسلمون له ، ويندمجون معه ، ولا يواجهون ضغطه السياسي ، واستعماره الإقتصـــادي أو غزوه العسكري فحسب ، بل انهم يحاربون أولاً تلك الروح المادية ، روح الجشع والأنانية وعبادة البطن والمعدة ، التي تسربت في كيانه ؛ وتغلغلت في أحشائه ، وجرت منه مجرى الروح والدم ، فيأخذون ما صفا من هذه العلوم ، ويدعون ما كدر ، يستفيدون من أدواته ومعلوماته وعلومه وصناعته — التي لا يحتكرها شعب ولا تختص بها أمة — ويتبرؤون من حضاراته وثقافاته وآدابه التي تحدد المفاهيم والأهداف ، وتضع القيم والأقدار ، وتكيف المجتمع والحياة . !

إنهم لا يحسبون — شأن بعض البسطاء في الشرق الإسلامي — أن هذه الروح المادية المتحررة المنطلقة من كل قيد ، الخارقة لكل قانون ، هي السر وراء هذه النهضة المادية والصناعية ، التي فاق فيها الغرب على أترابه ، بل يعتقدون أن السر وراء هذه النهضة هو التنظيم والإدارة ، والصناعة والتجارة ، والعلوم التطبيقية التي لا صلة لها بمناهج الحياة وأهدافها ، ولا دخل لها في وضع صورها وأشكالها ، فيشيرون بذلك ، ويعترفون به في شجاعة وثقة ، ويُشيرون على الغرب بالتمسك به والمحافظة عليه ، واقتباس الدين والأخلاق . وتعاليم الأنبياء من الشرق حتى يضم قوة إلى قوة ، ويحقّق رسالة المدنية والتقدّم .

www.abulhasanalinadwi.org

انهم لا يقفون في وجه الغرب كالعدو اللدود ، أو كالحاقد الثا
وكالناقد الساخر ولا كالتلميذ الخاشع ، والرقيق الخانع ، ولا
يطأطئون له رؤوسهم كالمصابين بمركب النقص والشعور بالهوان ،
ويقولون آمنّا وصدّقنا ، سمعنا وأطعنا ، بل يقولون في صدق
وجرأة ، وقوة وصرامة ، أصبت هنا ، وأخطأت هناك ، وكان
الصواب أهون وأيسر ، والخطأ أدهى وأمر ، لأن الصواب هي
هذه الوسائل والأسباب ؛ والعلوم والصناعات ، والإدارة
والتنظيم ، وهي لا تضر الإنسان كثيراً إذا فاتته ، أما خطأك
فهو منهجك في استخدام هذه القوة وهذا العلم ؛ واهدافك في هذه
الحياة ، ونظرك إلى الكون والإنسان ، وانحرافك عن جادة
النبوة والهداية ، وثورتك على الأخلاق ، والقيم الرفيعة .

وهذا الكتاب الجديد « حديث مع الغرب » يصور هذا
الموقف الجديد في صراحة وقوة ، وفي جمال وعذوبة ، ويقدّم
لرجال الدعوة ، وقادة الفكر أسلوباً جديداً في الحديث مع
الغرب ، أسلوباً ليس فيه ضعف الفريق الأول ، وخضوعه لكل
ما يرد من الغرب إلى الشرق ، وتقديسه الزائد لكل ما يُنسَب
إليه من علم وفكر ، وعمل وسلوك ، وليس فيه روح الحنق
والسخط ، وحب الثأر ، التي سيطرت على كتابات الزعماء
السياسيين في الشرق الإسلامي في فجر القرن العشرين ، فكل
ذلك لا يُفيد الإنسانية المشتركة بين الشرق والغرب ، ولا يحقق

www.abulhasanalinadwi.org

رسالة الدعوة والهداية التي يضطلع بها المسلمون بصفة خاصة .

وقف المؤلف في هذا الكتاب موقف الداعية الإسلامي ، يدعو الغرب إلى الإسلام ، من غير محذرة ، وتأويل وخجل واستحياء ، ويحثه على أن يلعب دوره الخطير الهام في قيادة الإنسانية ، ويغير مجرى الحياة ، وانه يقول إن هذه الوسائل والعلوم تستطيع أن تفيض على الجنس البشري على اختلاف ألوانه وطبقاته وأممه وشعوبه سعادة حقيقية ، إذا اقترنت بالإيمان والغايات الصالحة ، ولكنه لا يكتفي بهذا القدر من الدعوة ، بل يلفت أنظار أهل الغرب إلى هذه الأنانية والكبرياء التي سدت عليهم منافذ النور ؛ وحالت دون قبول الحق ، وذلك كله في أسلوب حكيم لبق ، ينم عن فقه وحكمة ، وحب واخلاص ؛ وتوجع واشفاق .

ووجه حديثا إلى الشباب المغترب — بوجه خاص — محذّراً له عن أن تسحره هذه الحضارة الخادعة التي ظاهرها فيه الرحمة ، وباطنها فيه العذاب ، وأن يعيشوا في الغرب كالداعي والقائد ، لا كالمقلّد والتلميذ ، ويفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق على أساس النفع المتبادل ، ويرجعوا إلى أوطانهم وبلادهم ، وهم أشد إيماناً بخلود الإسلام واعتزازاً به ، وأكثر إشفاقاً على الغرب وعلى الإنسانية التي كادت تهوي في الهاوية .

فجاء الكتاب يجمع بين حسنتين وبين دعوتين ، دعوة للغرب

www.abulhasanalinadwi.org

لتغيير اتجاهه من الجاهلية إلى الإسلام ، ودعوة للشباب المسلم المغترب أن يقف دائماً في موقف الداعي والإمام ، انه يقدّم وجهة نظر جديدة ينظر بها مسلم إلى الغرب ، وتعرض هذا الطراز من التفكير الذي تحفظه عن سمومه وشروره ، وتؤهله للقيام بدوره الرائع المنتظر ، والإنتصار عليه في نهاية المطاف باذن الله .

وانه يسعدني كثيراً ويشرفني أن أقدّم هذا الكتاب « حديث مع الغرب » لسماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وهو غني عن كل تصدير ومقدمة ، ولكنها فرصة كريمة اغتبط بها وأتشرف ، وأنتهزها لتأييد المعاني الكريمة ، التي جاءت في هذا الكتاب ، والغاية النبيلة التي ألّف لها ، ولله الحمد في الأولى والآخرة ، والبداية والنهاية .

١ شعبان سنة ١٣٨٧ هـ .

دائرة الشيخ علم الله الحسني

رائي بريلي (الهند)

www.abulhasanalinadwi.org

رسالة الإنسانية للشرق والغرب

« محاضرة ألقيت في نادي الاتحاد لجامعة لندن في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ ١١ من اكتوبر عام ١٩٦٣ م في حفلة حضرتها نخبة من طلبة الجامعة والمشتغلين بالبحث والدراسة في لندن » .

« ربِّ اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري واحلُلْ عقدةً من لساني يفقهوا قولي »

سادتي وسيداتي !

لقد أُثر عن الشاعر الانجليزي الكبير روديارد كيبلينغ (Rudyard Kipling) أنه قال : «الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولا يلتقيان » .

www.abulhasanalinadwi.org

إن هذه الكلمة وإن صدرت عن أديب مات في فجر القرن العشرين ولكنها فكرة تغلغلت في أحشاء الشرق والغرب قديماً ،وتأصلت جذورها في أدبها وفلسفتها ،وقد تسبق الأفكار والمشاعر ؛ وتلعب دورها في المجتمع وميوله وعواطفه ، فيأتي أديب كبير ، هو لسان حال المجتمع ، فيعبر عنه في أسلوب أدبي قوي ،أو شعر بليغ رنان فيرسلها مثلاً سائراً ويجعلها كلمة باقية في أعقابه ، ويرجعون إليها في جميع الأدوار ويتغنون بها في جميع الأمصار .

لا أعرف فكرة أو كلمة أدبية جنت على مصلحة الإنسانية ووحدتها ، ومناهج فكرها مثل ما جنت هذه الفكرة ـ فكرة توزيع الأسرة الانسانية الواحدة بين الفصيلة الشرقية والفصيلة الغربية ـ ومثل ماجنت هذه الكلمة التي تتراءى كلمة وادعة بريئة ؛ أو حقيقة علمية تاريخية ، فقد اعتاد الناس في الشرق والغرب ؛ أن ينظروا إلى الشرق والغرب دائماً كمعسكرين معاديين متنافسين لا يلتقيان أبداً ، كضرتين متخاصمتين لا تجتمعان ابداً ، فإن التقتا فعلى صعيد الحرب والقتال ، وإن اجتمعتا فلتذكر كل واحدة منهما مثالب الأخرى وتتبع عوراتها وتشفي نفسها .

هكذا ظل الشرق والغرب قروناً طويلة ، أيها السادة !

www.abulhasanalinadwi.org

لا يعرف أحدهما الآخر إلا معرفة ضئيلة سطحية ، تعتمد على مواضع الضعف والنقص ، أكثر مما تعتمد على مواضع القوة والجمال ، ويعامل كل واحد منهما الآخر بشك أو حذر ، وباحتقار وكراهية .

وكان أول تعارف الغرب بالشرق من قريب في الحروب الصليبية ، وكانت الفكرة التي تسيطر على الزاحفين إلى الشرق في هذه الحروب ، والروح التي كانوا يحملونها والروايات التي سمعوها وصدقوها عن المسلمين وعقائدهم وأخلاقهم والتي دفعتهم بحماسة إلى ساحة القتال لإنقاذ الأرض المقدسة من براثن الوحوش الوثنيين ـ كما قيل لهم ـ والجو المظلم الرهيب الذي يسود دائماً على ميدان القتال ، كل ذلك كان لا يسمح بفهم المنافس المناضل وتقدير محاسنه ومواهبه ودراسة عقيدته وخلقه ، والتبادل الحر الكريم ، في المنافع والمصالح ، إلا أن الحروب الصليبية ـ كما هو مقرر في تاريخ الحضارة ـ لم تخل من الفائدة ، وقد قصرت بفضلها الفجوة الواسعة بين الأمتين ، وبين القارتين ، إن لم تستطع بطبيعة الحال أن تملأها .

وكان أول تعارف الشرق بالغرب من قريب ، يوم مد الغرب يده القوية الحديدية ـ بدافع المصالح الإقتصادية والسياسية ـ إلى الشرق وبسط نفوذه وسلطانه على أقطاره ، واحداً بعد آخر في القرن التاسع عشر وزحف إليه بحضارته

www.abulhasanalinadwi.org

وصناعته ، وعلومه وثقافته ، وأساليب حكمه ؛ وبخيره وشره ، وأصابت الشرق المتخلّف في العلوم العصرية ، والصناعة الحربية أولاً دهشةُ الفتح التي منعته فترة طويلة عن فهم الغرب الفهم العميق ، والإفادة مما برع فيه وتفوق ، ومما كان يفيد الإنسانية في سيرها ، ومنعه كذلك ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ ما حمله الغرب معه من ثمرات الحضارة المادية وهي في أوج قوتها وزهوها ، ومما لا تخلو عنه حضارة ضعف فيها سلطان الدين ، ومنعه كذلك ـ وأرجو عدم المؤاخذة مرة ثانية ـ ما اتسم به الحكام الأوربيون من الشعور الزائد بالسيادة وكرم العنصر ، وما كان يصدر منهم أحياناً كثيرة مما لا يتفق مع مبدأ احترام الانسانية وروح الديمقراطية ، التي عُرفوا بها ودافعوا عنها في بلادهم دفاعاً مجيداً ، والمفتوح الذي كان سيد البلاد بالأمس رقيق الشعور مرهف الحس دائماً .

ثم أصيب الشرق الضعيف بالاستسلام والرضوخ للغرب الفاتح القوي والخضوع الزائد لقيمه ومفاهيمه ، والتقديس لمظاهر مدنيته وأساليب حياته ، والتقليد الذي أفقده شخصيته وكرامته ، والسير في ركاب الغرب ، والإعتماد عليه في جميع مرافق الحياة ، والعيش على هامش الأمم وفي مؤخر القافلة ، وقد منع ذلك الغرب من أن ينظر إلى الشرق نظرة احترام ومساواة ، فضلاً عن أن ينظر إليه نظرة إكبار وإجلال ، ويتوقع

www.abulhasanalinadwi.org

منه توجيهاً وارشاداً ، أو ينتظر منه إنتاجاً جديداً وابتكاراً ، وكاد الشرق يذوب في الغرب وينصهر فيه .

وأخيراً طغت على الأمم الشرقية فكرة القومية التي لجأت إليها الأمم الغربية كبديل عن الجامعة المسيحية التي كانت تربطها بها الكنيسة الرومانية في القرون الوسطى ، وعن العاطفة الدينية التي كانت تثير الحماس فيها وقد منعت هذه الفكرة الأمم الشرقية التي كانت تحمل الرسالات السماوية في زمن من الأزمان — عن أن تمدّ يد المساعدة من جديد إلى الغرب ، كما مدّتها في الزمن الماضي ، وكان أمر الأمة الإسلامية في ذلك أعجب ، فقد كانت لا تزال أمة الرسالة السماوية ، أمة أخرجت للناس للهداية والدعوة إلى الخير ، فقد تشاغلت ـ بفعل هذه الفكرة الضيقة ـ بنفسها ومصالحها القومية ، وانحصرت في دائرة ضيقة من حدود جغرافية أو لغوية أو عنصرية ، وهكذا نضب ـ أو كاد ينضب ـ المنبع الثري السخي ، الكريم القديم الذي كان مصدر الاشعاع العالمي في كل دور من أدوار التاريخ .

وجاء دور الاستشراق والمستشرقين في الغرب ، وكان الأمل قوياً في أن يكونوا قنطرة بين الشرق والغرب ، وأنهم سيملؤون هذه الفجوة الواسعة الظالمة بين الأسرتين الشقيقتين ، ويرفعون الجفوة التي أنشأها الجهل والبعد بين أعضائها ، وينقلون أفضل ما عند الشرق من تعاليم النبوة ومبادىء الأخلاق ، وسير

www.abulhasanalinadwi.org

الأنبياء والشخصيات الدينية ، وما أنتجته من ثروة باهرة ، وتشريع مدهش ، وتراث رائع ،وقد قاموا فعلاًبدور عظيم في إحياء الكتب الاسلامية المطمورة التي لم تر الشمس والنور من قرون ، وفي تصحيحها ومقابلتها بالاصول ثم في نشرها ، وألفوا كتباً لا يستهان بقيمتها العلمية ، ولا يستطيع أحد رزق ذرة من الإنصاف وحُب العلم أن ينكر روحهم العلمية ، وتحملهم للمشاق، وتفانيهم في مهمتهم ، ودقة نظرهم ، وأسلوبهم العلمي ، ولكن الشرقيين وخصوصاً كثيراً من المسلمين يشعرون بأن كثيراًمنهم كانوا مدفوعين بالروح الدينية أكثر من الروح العلمية ، وكان المحبّون للعلم والحقيقة ينتظرون منهم تجرداً عن العواطف والرواسب أكثر ، وشغفاً بالحقيقة وارتياداً للحق ، وجرأة في الاعتراف به أعظم ، وعلى كل فقد تقاصر الاستشراق على فضله الكبير ومآثره الكثيرة عن أن يملأ هذا الفراغ ، ويقدم إلى الغرب ـ الذي كثر فيه الباحثون عن الحقيقة والمتبرمون من المدنية العادية الجافة في العصر الأخير ـ صورة صحيحة وضاءة مشرقة للأديان الشرقية عموماً ، والدين الإسلامي بصفة خاصة الذي يعتبره المسلمون الرسالة السماوية الأخيرة الخالدة ، التي بلغت فيها تعاليم النبوة وتوجيهات السماء طورها الأخير النهائي ، والتي توافق طبيعة هذا العصر ، ولا تسير بالمدنية إلى الوراء كما يظهر في بعض الديانات ، بل إلى الأمام ، وتجردها من الافراط

www.abulhasanalinadwi.org

والتفريط ومن الجمود والتطرف ، وتسكبها بقوتها وحيويتها العجيبة سبكاً جديداً يلائم حاجات المجتمع الجديد .

ومهما كانت الأسباب والعوامل ، ومهما كانت صالحة للمناقشة والبحث العلمي ، فقد ظل الشرق بعيداً عن الغرب مستقلاً بنفسه ورسالته ، لا يلتقيان إلا تحت نقع الشبهات والظنون ، والإحن والأحقاد ، لا يلتقيان لصالح الانسانية المشترك ، ولبناء المدنية المثلى ، ولا يتبادلان ما يختصان به من مواهب إلهية وعلوم مكتسبة ، واستعدادات فطرية ، وما أنتجاه وأبدعاه على مر الدهور والأعصار ، من علم وفلسفة ، وأدب وحكمة ، إلا نادراً وفي دائرة محدودة .

ظل الشرق يعمل في مجاله الطبيعي ، ويدافع في فطرته التي اختمرت مع الدين ، وتوقظها النبوة الكريمة حيناً بعد حين ، وتغذيها الدعوات الدينية والشخصيات الروحية القوية باتصال واستمرار ، وكان موضوعه « الانسان » وكان موضوعه هذا الانسان أكثر مما حول الإنسان ، وتحت قدمه وفوق رأسه ، عني به الشرق باخلاص وجد ، وجاهد فيه جهاداً كبيراً ووهب له جميع مواهبه ، وصب في هذا الموضوع ذكاءه وعبقريته ، وقوة إرادته ، عني باكتشاف أسراره التي لا نهاية لها ، وسبر غوره الذي لا قرارة له ، وإشعال مواهبه وإثارة قواه التي

www.abulhasanalinadwi.org

لا تعدلها قوة في هذه الأرض ، وتنظيم ميوله واتجاهاته ، وتهذيب أخلاقه التي لا صلاح للبشرية بغير صلاحها .

جاء الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — وجاء في آخرهم النبي العربي الأمي ﷺ ، فعُني بهذا الإنسان وتربيته وإثارة كنوزه ودفائنه وفتح فيه عين البصيرة التي يدرك بها خالقه ورب هذا الكون الواسع العجيب ، ويستمد بها النور والحياة ، والعلم ، والحب ، والثقة ، والعزم ، والطمأنينة ، والرضا ، ويعرف بها مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذا الكون ، فيعثر بذلك على المركز الذي يربط به الوحدات المبعثرة في هذا العالم ، فيتراءى له هذا الكون وحدة لا تبعثر فيها ، ولا تناقض ، ولا فوضى فيها ولا تنافس ، ولا توجد فيه مناطق مستقلة متناكرة متحاربة ، إنما هي مملكة منظمة واحدة ، تُديرها إدارة قاهرة ، رحيمة واحدة ، « ألا له الخلق والأمر » ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » يتخلص بذلك عن جميع أقسام الوثنية والشركية ، وعن الأوهام والخرافات ، وسلطان الأساطير والروايات ، والتقاليد والعادات ، ويترفّع عن الخضوع لغير فاطر الكون ومدبّره ، حجراً كان ، أو شجراً ، بحراً كان أو نهراً ، شمساً كانت أو قمراً ، ملكاً كان أو بشراً ، أنثى كانت أو ذكراً ، « ربّ السماوات والأرض فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً » .

www.abulhasanalinadwi.org

وفتح فيه النافذة التي نظر منها إلى نفسه وجنسه ، فوجده خليفة الله في هذا العالم ، نفخ فيه من روحه ، وجعله موضع سره ، ومستودع أمانته ، خلقه في أحسن تقويم ، وخصّه بأفضل تكريم ، وخلع عليه لباس النيابة والوصاية ، وألبسه تاج الكرامة والإمامة ، وخلق له ما في الأرض جميعاً ، وخلقه لنفسه ، وأسجد له ملائكته فحرّم عليه بذلك السجود والخضوع لأي كائن مخلوق « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ونظر منها إلى بني نوعه ، نظر منها إلى الأسرة البشرية المنتشرة في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدها أسرة موحده كنفس واحدة تلتقي على أب واحد ، وأم واحدة ، يعتبرها — في ضوء تعاليم النبوة — عيال الله ، ويعتقد أن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ووجدها تحمل روحاً ونفسا وشعوراً ، يألم كل عضو منها كما يألم الآخر ، ووجد أن التمييز بين أعضاء هذه الأسرة على أساس اللون أو الوطن ، أو الشعب ، أو الفقر ، أو النسب ، تراث جاهلي ، وقد سمع هذا النبي الكريم مرة يقول لربه في ظلام الليل خالياً « أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » وأخرى يقول في ضوء النهار وأمام الجمع الحاشد « يا أيها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على

www.abulhasanalinadwi.org

عربي ؛ ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلاّ بالتقوى» . «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

عُني الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في عصورهم ومناطق دعوتهم ، وعُني النبي العربي الأمي ﷺ في آخرهم بتربية هذا الانسان وتحريك مواهبه واستعداداته التي لم تبلغ الفلسفة أو علم النفس أو الاكتشافات الحديثة بعدُ إلى نهايتها وقرارتها ، ثم عُني بتنظيمها وتوجيهها إلى صالح نفسه وصالح الإنسانية ، وأثار فيه رغبة غريبة ، ونهامة عجيبة لإرضاء الرب والتقرب إليه ببذل النفس والنفيس ، والتفاني في حبه وطاعته ، وفي محبة خلقه وخدمتهم ، وإزالة المكروه عنهم وما يضرهم في الدنيا والآخرة ، وإيثارهم على نفسه ، ومحاسبة النفس الدقيقة ، ودقائق الاخلاص والأخلاق ، الدقائق التي لا يبلغ إليها ذكاء الأذكياء ، ولا يدرك كنهها علم العلماء ، والتي هي أدقّ من المعاني الشعرية ، والأخيلة البديعة في آدابنا ، ولا تُرى بأدق مكبرة ، ولا تُصوّر بأحدث آلة ، ووصل في غزارة الحب ، وقوة العاطفة ، ورقة الشعور ، ودقة الاحساس ، وشفافية الروح ، ونُبل الاخلاق وكرامة النفس ، والتجرد عن الأنانية ، والزهد في زخارف الدنيا على المقدرة ، وسمو الفكر ، وعلو الهمة ، وشدة الشوق إلى لقاء الربّ ، وفي علم الذات والصفات الدقيق العميق ، مالا

www.abulhasanalinadwi.org

يتصوره إنسان . إلاّ إذا عاش مدة في سيرهم وأخبارهم ، ونزل أعماقهم وأغوارهم ، فكان « الانسان » مأثرة النبوة الكبرى والحقل الذي تعهدوه وبذروا فيه البذور الكريمة فأتى بأكبر حاصل وأفضل زرع .

إن الأنبياء في الشرق ، أيها السادة ! لم يعنوا باكتشاف القوى المودعة في هذا الكون ، وتسخيرها واستخدامها كثيراً ، ولا باختراع الآلات والوسائل عناية كبيرة ، وإنما كان جل عنايتهم تربية الانسان وإيجاد الارادة الخيرة والدوافع الفاضلة فيه ، وتحديد الغايات الصالحة له ، والثروة الطبيعية أو الصناعية كما تعلمون خاضعة ، دائماً لارادة الانسان واتجاهه وغاياته ، فلما وجدت في الإنسان الإرادة الخيرة ، والدافع القوي الفاضل ، وعرف الإنسان الغاية الصالحة التي يجب أن يسعى لها استطاع أن يعمل بثروته المحدودة المتواضعة وبالآلات والمرافق المعدودة الضعيفة ـ التي وصلت إليها المدنية والعلم في عصره ـ أعمالاً عظيمة لم تتوصل إليها المدنية إلى هذا العصر ، وخدم بها الإنسانية وبني نوعه خدمة لم يوفق لها كثيرٌ ممن ملكوا ثروة ضخمة من الآلات والوسائل ، ذلك لأنه إذا وجدت الإرادة القوية المخلصة الجادة ، اكتشفت المجهول وأبدعت الوسائل ، وتغلبت على الصعوبات ، وشقت طريقها في صخور الجبال وأحشاء البحار ، واذا فقدت ضاعت الوسائل ، وتعطلت الآلات ، وهبطت

www.abulhasanalinadwi.org

جهود المكتشفين والصناع. إن الجوع اللاذع والظمأ القاتل وحنان الأم، ولوعة الحب، وشدة الشوق لم تكن في عصر من العصور في حاجة إلى علم كبير وآلات كثيرة؛ ولقد عرفت في كل مكان، وفي كل زمان كيف تقضي حاجاتها، وكيف تصل إلى غايتها.

وقد أوجد الأنبياء بقوة شخصيتهم وتأثير تربيتهم رغبة في الانسان يشعر معها بأنه مدفوع إلى تحقيقها، كما يشعر الجائع، والظمآن، والأم الحنون، والمحب الثاني، فاكتشف الطرق الموصلة إليه والوسائل الضامنة له، وكانت كافية في عصره الذي الذي يعيش فيه، وهكذا أيها السادة! وُجدت المدنية الفاضلة التي تمتع فيها الانسان بأكبر قسط من الراحة والسلام، والعزة والكرامة، وكانت مدنية محدودة بسيطة، لا تعقد فيها ولا غموض، قابلة للتوسع والتقدم في المستقبل على أساس صالح سليم.

وجاء دور نشاط الغرب وإنتاجه ونهضته، وقد ضعفت صلته بالدين والأخلاق لسوء تمثيل من تزعمها واحتكرها من العلماء ورجال الدين زمناً طويلاً، ولضعف هذه الصلة العميقة ولضغط الحاجات الاقتصادية والعوامل السياسية، ولعنف «التنازع للبقاء» في هذه الرقعة المحدودة لأوربة اتجهت عناية الغرب — بدل الإنسان — إلى بيئة الإنسان ومحيطه، وبدل النفس

www.abulhasanalinadwi.org

والقلب ، إلى آفاق الطبيعة الغنية بالقوى والأسرار ، وإلى المعادن والمناجم ،وعلوم الكيمياء والفيزياء ، والرياضة والهندسة ، والصناعة ، والميكانيكا ، وقد جرت سنة الله أن يؤتى كل إنسان ما طلبه ، وسعى له ، ويسخره له ويمده فيه ، والقرآن يقول : « كلاً نمد لهؤلآء ولهؤلآء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » ويقول : « ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » فصار الغرب يقطع أشواطاً واسعة في علوم الكون والطبيعة والفنون الرياضية والهندسية ، ويكتشف سحراً بعد سحر ، ويصل إلى فتح بعد فتح ، حتى وصل إلى ما وصل إليه في العصر الحديث مما لم يكن الإنسان مهما أوتي من الذكاء في القرون الماضية يحلم به أو يتخيل ، ومما لا يحتاج إلى الشرح وضرب الأمثال في هذا المكان الذي يعتبر بحق زعيما من زعماء العلم الحديث والمدنية الغربية ، وعاصمة من عواصمها الرئيسية ، وهذه الجامعة الموقرة التي أتشرف بالكلام فيها قد ساهمت مع شقيقاتها في تكوين هذا العالم ،وتوسيعه وتهيئة الأسباب لهذه الفتوح المدهشة في مجال الطبيعة والصناعة ، فلا حاجة إلى الإطالة في هذا الموضوع .

لقد تهيأت هذه الأسباب وهذه الوسائل ، وكانت نعمة من الله لا يستهان بقيمتها وفضلها ، وتضخمت وتكدست ، وكانت لغاية واحدة مائة وسيلة وآلة ، وكل فيها الغناء الكبير ، والقوة

www.abulhasanalinadwi.org

الهائلة ، والسرعة المدهشة،وكانت أقل منها كافلة لسعادة البشرية وهنائها ورخائها وإقامة السلام العالمي ونشر الحب والوحدة ، والتعارف والتعاون بين فروع هذه الأسرة المنتشرة في العالم ، ورفع الحواجز بينها وإزالة السدود دونها ، يستطيع الإنسان اليوم أن يمدّ يد المساعدة والبر والمواساة إلى أقصى رجل في العالم ، ويسمع دقّات قلبه وخلجات نفسه ويرى وجهه ويسمع كلامه ، ويمنع الظلم — إذا أراد — وينصر المظلوم ، ويجيره الجائع في صحراء أفريقية ، ويغيث الملهوف في أقصى الصين ، وقد زال كل مانع كان سببه جهل الإنسان وضعفه ، والذي كان يتعلل به القدماء الضعفاء ، وحدثت كل آلة يحقق بها الإنسان إرادته ، ويصل بها إلى غايته في أقرب وأقل جهد ، فلا عذر لطالب خير ، ومحب إنسانية ، ومؤيد سلام ولا عذر لفرد ولا لمجتمع ، ولا لحكومة .

لقد كانت هذه الوسائل كافلة بأن تحول هذه الدنيا المليئة بالأكدار والأخطار ، المثخنة بالجراح إلى جنة أرضية ، لا نصب فيها ولا لغوب ولا خوف فيها ولا حزن ، ولا حرب فيها ولا عداوة ، ولا فرق فيها ولا مرض ،ولكن هل تحقق ذلك، وهل زال الخوف والقلق ،وهل انتهى الفقر والبؤس ، وانقرض الظلم والهمجية ،وهل ساد السلام والإخاء ،وهل انتشرت الثقة بين أفراد الأسرة الإنسانية ، وهل زال شبح الحروب المخيف ،

www.abulhasanalinadwi.org

ومات عفريتها الراعن ؟ انني لست في حاجة إلى أن أقف وأنتظر جوابكم ، فإن هـــذه المدنية الهائلة قد شهدت حربين طاحنتين مدمرّتين عالميتين ،وساهمت في نتائجها وويلاتها ،ونحن كلنا نعيش في عصر اللذة وهولها ،وقد ملأ المفكرون والكتّاب في هذ البلد المكتبة الحديثة بالكتب التي تصور انحراف هذه المدنيّة وشقاء أهلها بها ويندبون فيها التفسخ الخلقي ، وتحلل الروابط ، وتفكك الأسر ، وانتشار القلق والاضطراب ، وتسلط الخرف والذعر ، فيما كتب ويكتب كفاية وبلاغ .

لماذا كانت هذه النتيجة أيها السادة ؟ ! والوسائل بريئة ، والآلات صماء لا ضمير لها ولا اتجاه ، وهي صالحة مهيأة للخدمة والنفع في كل وقت إذا أراد صاحبها ومصرفها ؛ إن الجواب ليس سراً يكتشف أو لُغزاً يحل ، وليس فيه امتحان ذكاء وتفكير ، والسبب أن الإنسان لم يتقدم بقدر ما تقدمت العلوم وأن الأخلاق والميول والاتجاهات لم تتقدم بقدر ما تقدمت الآلات والمؤسسات ، بل اسمحوا لي أن أقول إن العلوم تقدمت على حساب الإنسان وعلى حساب الأخلاق ، وإن الآلات والمؤسسات تقدمت على حساب الميول والاتجاهات ، وعلى حساب الروح والقلب ، ذلك لأن الغرب — مع الأسف الشديد — حصر نشاطه وذكاءه وقوة إرادته في المجال الخارجي ، وركّز كل جهده وكرّسه على العالم الخارجي ، وانصرف عن الانسان

www.abulhasanalinadwi.org

انصرافاً كلياً ، وإذا أقبل عليه — في دائرة علم النفس أو علم الاحياء — أقبل بفكر مادي محدود لا يتناول أغواره وخصائصه ، وإيمانه وعقيدته ، وأخلاقه ، ولم يتناول المصدر الذي يقوده ويوجهه ، وينعه من الشر ويدفعه الى الخير ، وذلك هو القلب الذي إذا صلح ، صلح الإنسان ، وإذا فسد ، فسد الإنسان .

ومع الأسف إذا أراد الغرب أن يُقبل على هذا القلب وينتفع به ويوجه به الإنسانية لم يستطع ، ولا يجد إلى ذلك سبيلاً لأنه فقد المفتاح الذي يفتح به هذا القُفل ، والقفل لا يفتح بغير مفتاحه ، وعجزت صناعته الدقيقة ، ومصانعه الهائلة ، ونوابغه العباقرة عن أن يصنعوا له المفتاح الجديد ، أو يكسروا له هذا القفل العنيد ، لأنه قفل الإنسانية ، لا قفل البنوك والمصانع ، ولا قفل الصناديق والخزانات ، لا يفتح إلا بمفتاح الإيمان ، ومفتاح الإيمان الذي أتحفت به النبوة الإنسانية في الزمن القديم ، مفقود أو مطمور في الغرب تحت ركام المدنية أو أنقاض المعابد من قديم .

إن شقاء الإنسانية ، أيها السادة ! في انفصال الغرب عن الشرق وفي انفصال العلم عن الإيمان ، وفي انفصال المؤسسات عن الأخلاق والغايات الصالحة ، هذا الانفصال النكيد الذي جرّ على مدنيتنا شقاء طويلا ، والإيمان تقدم وتضخم في الشرق قديماً ، والعلم تقدم وتضخم في الغرب حديثاً ، والإيمان لايزال

www.abulhasanalinadwi.org

ينتظر مرافقة العلم ، والعلم لا يزال ينتظر مراقبة الإيمـــان والانسانية تنتظر التقاءهما وتعاونهما ،في بناء المجتمع الجديد ،وفي إنشاء الجيل السعيد ، ولا أمل في السلام والسعادة الحقيقية ، الا بهذا الالتقاء المبارك والتعاون الكريم ، وليست ثروة الشرق، أيها السادة الغربيون ، والاخوان الاوربيون ، هي هذا النفط ـ الذهب الأسود ـ الذي تنقلونه إلى عواصمكم لتتحرك به هذه المدنية بطائراتها ، وسياراتها ، إن ثروة الشرق وهديته ذلك الايمان الذي نبـع وفاض في الشرق ، وأخذتم منه نصيباً في بداية تقويمكم الميلادي ، ثم نبـع وفاض بقوة هائلة ، لا نظير لها في التاريخ في القرن السادس من تقويمكم ، نبـع في ركن بعيد من جزيرة العرب ثم فاض في العالم وأروى الإنسانية كلها ، ولا يزال في متناول يد كل شعب وكل فرد ، إذا صحت العزيمة ، ووجدت الجرأة الخلقية ، ولا يزال جديراً قادراً على إزالة جميع المشكلات التي تعانيها هذه المدنية ، ويستطيع أن يفيض على هذه المدنية ـ بقوته وحيويته العجيبة ـ حياة جديدة ، ويمنحها قسطاً جديداً من الحياة ، ونوعاً جديداً من الرسالة ، ويحوّل هذه الآلات والمؤسسات وهذه العلوم والصناعات الى غايات رشيدة صالحة بنّاءة ويستخدمها في صالح الإنسانية وفي بناء المجتمع الجديد ، المجتمع الذي يتطلع إليه هذا العصر ، وعليكم يقع يا أبناء الجزيرة البريطانية مسئولية اكثر من كل بلد ومن كل

www.abulhasanalinadwi.org

حكومة ، فأنتم من أكبر روّاد هذه الحضارة ولا تزال فيكم القوة الكامنة والحيوية الكافية لتستأنفوا حياة جديدة ، وتنحوا بتاريخكم نحواً جديداً ، واسمعوا الصوت السرمدي يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

---

www.abulhasanalinadwi.org

إلى الشعب الألماني [1]

أيها السادة ! أقوم لأول مرة في بلد كبير في ألمانيا كبرلين، أحيي الشعب الألماني العظيم وأتحدث إليه ، وأتحدث عن الإسلام ، وتلك فرصة سعيدة أقدرها حق قدرها وأعرف قيمتها وفضلها ، لقد اتسم الشعب الألماني في الزمن القديم بالرجولة وحب المغامرة ، والجد والكفاح ، لقد كانت نتيجة ذلك أن نهض في هذا الشعب رجال وعصاميون كان لهم التأثير الواسع العميق في المجتمع الغربي وفي الفكرة الغربية ، أخص بالذكر منهم ثلاثة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في جامعة برلين للعلوم في ٢٤ من اكتوبر ١٩٦٤م ، وكان نص الكلمة باللغة العربية قرأ ترجمته الالمانية شاب ألماني فاضل كان قد أسلم حديثاً .

www.abulhasanalinadwi.org

كان لكل واحد منهم سلطان قوي على النفوس والعقول ، وكان كل واحد منهم صاحب مدرسة واتجاه جديد في موضوعه ، منهم مارتن لوثر (Martin Luther) الذي قام بإصلاح الكنيسة والدعوة إلى العودة إلى الكتاب المقدس وتحكيمه والحد من سلطان الباباوات والقسس ، وأثر تأثيراً كبيراً في العالم المسيحي حتى كان مؤسس ديانة جديـــدة تسمى « بروتستينية » (Protestant) ، وكان منهم « كانت » (Kant) الذي حدّ من سلطان العقل الذي غالت فيه أوروبا وذهبت في تقديسه وعبادته كل مذهب ، وحدّ حدوده ومجالاته واعتُبر أنبـغ عقل أنتجته ألمانيا في العهد الأخير ، وكان له ولكتابيه العظيمين : نقد العقل الخالص (Critique of Purereason) ونقد العقل العملي (Critique of Practical Reasou) تأثيراً كبيراً في أوساط الفلسفة والتفكير في أوربا ، وقد اتسمت هذه الحركات بالشجاعة والثورة والإبتكار ، وكان لكل منهم تأثير وابتكار عرف فضله في بلاده وفي المجتمع الأوروبي .

لقد عُرف الشعب الألماني بالثورة والقلق وأُولع بهما ، بلغت هذه الثورة النفسية والقلق النفسي أوجه في شخصية كارل ماركس الألماني ، وفلسفته التي أثارت القلق والتذمر في مساحة واسعة من العالم ، وأحدثت أكبر ثورة على الأوضاع الاقتصادية القديمة في هذا العصر ، وما كانت هذه الحركات التي نوّهنا بها

www.abulhasanalinadwi.org

وبرجالها إلا ثورات ومغامرات اتسع مجالها حيناً وضاق حيناً ، وقوي تأثيرها حيناً وضعف حيناً ، وعُرف هذه الشعب بالطموح وحب المجد والاعتماد على النفس ، وما كانت الحرب الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) والحرب الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥ م) إلا ثورتين ومغامرتين في عالم السياسة والحكم ، وما كان إلا أن جاشت نفس هذا الشعب العظيم وثارت مواهبه وطاقاته ، وتملكه الطموح والإعتماد على النفس ، ولاتزال شرارة الحياة كامنة في نفس هذا الشعب ، ولا يزال دافقاً بالحيوية والنشاط وبقابلية البناء والإنتاج ، فلولا ذلك لما استطاع هذا الشعب أن يحتمل هذه الصدمة التي قلّما عرف في التاريخ مثلها ، وأن يعيش على هذه النكبة التي كانت كفيلة بخمود أمة ويأسها وتشاؤمها في الحياة ، وما كانت لتخرج هذه المدنية والصناعة وهذا النشاط والانتاج من تحت ركام المدن المدمّرة في الحرب الثانية ، ومن تحت أنقاض برلين ، ويقود - الألمان - شعباً فتياً يواصل نشاطه وكفاحه من جديد .

لقد اقتصرت تجارب هذا الشعب العظيم على ثورات محدودة كالثورات التي أشرنا اليها في مفتتح هذا الحديث ، والتي نعرف فضلها وقيمتها في المجتمع الأوربي وفي الفكرة الغربية ، قد آتت ثمارها وأسبغت على الشعب الألماني العظمة والمجد والصيت البعيد ، ولكنها لم تستطع أن تقلب النظام الديني أو الفكري

www.abulhasanalinadwi.org

في أوربا رأساً على عقب ، ولم تستطع أن تخلق مجتمعاً وليداً وعالماً جديداً يختلف عن العالم القديم في كل شيء ، ولم تكن الحربان الماضيتان ثورة في المبادىء والأهداف ، ولم تكونا انتصاراً للمسيحية أو للفضيلة أو للإنسانية ، ولم تكونا لتحوّلا القيادة من اليد الظالمة الأثيمة إلى اليد العادلة الرحيمة ، لم تكونا للقضاء على الفجور والخلاعة الحيوانية ، إنما كانتا ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ منافسة في الحكم والسلطان ، وبلفظ صريح وبتعبير مكشوف لم تكونا الا من فريق خاص في الحرب ليجري كلما يجري في العالم من فساد وظلم وانتهاب تحت ولايته وإشرافه .

لقد كان الشعب الألماني العظيم جديراً كل الجدارة بإحداث ثورة أعمق من هذه الثورات جميعاً وأوسع من هذه الثورات جميعاً ، وأعْوَدُ على الانسانية (فضلًا عن ألمانيا وفضلًا عن أوربا) بالسعادة والهناء ، ثورة أكثر أصالة وأعظم جدة وأشد مغامرة وأوضح ابتكاراً من جميع الثورات التي قام بها رجالات ألمانيا وقادتها في العصر القديم والجديد ، لقد ظلت ألمانيا تساير الركب الأوربي وقد تقوده في الصناعة والإنتاج وتضيف الى ثروته الوسائل والمنتجات والمخترعات ومرافق الحياة التي تكفلت بها أوربا بعد عصر النهضة ، وليس دورها ولا سهمها في هذه المدنية الا الصناعة والإنتاج والتجارة والإستغلال ، وقد تجلى في ذلك

www.abulhasanalinadwi.org

ذكاء هذا الشعب وعبقريته وإبداعه ومثابرته أكثر من الشعوب الشقيقة والأقطار المجاورة ، واستطاع أن يشق طريقه إلى الأمام ، ويحتل الصدارة والزعامة من بين الشعوب والأمم وفي أكثر أسواق العالم .

ولكن كان المنتظر من الشعب الثائر المغامر قديماً ومن هذه البلاد التي هي مهد الثورات ، ومولد الثائرين أن تثور على أسس الحضارة التي حوّلت الانسان مارداً غوياً وهدّاماً قوياً ، وآلة صمّاء لا روح لها ولا قلب ، ولا عقيدة لها ولا ضمير ، حوّلت العالم إلى بيت المقامرين ،أو حانوت الجزّارين ، حوّلت الحياة كلها مساومة ومبادلة وبيعاً وشراء وسلبت الحياة لذتها وجدّتها وتنوعها وعمقها ومرارتها وشرارتها ، حوّلت الحياة إلى رحلة لا غاية لها ، وإلى متاعب لا نهاية لها ، وإلى سباق لا آخر له ، وإلى كفاح لا نتيجة له ، حوّلت الحياةإلى حمار الطاحون الذي يدور في دائرة واحدة ، سلبت الانسان أعز متاعه ، وأكبر شرفه ، وهو الإيمان واليقين ، والحب الخالص البريء ،واللوعة، لقد كان المتوقع من هذا الشعب — أكثر من الشعوب الأخرى في أوربا — أن يتمرد ويثور على هذه المثل الزائفة ، على القيم والمقادير التي ينحتها الانسان ثم يعبدها ويعكف عليها ، وهي أساليب الحياة وتكاليفها ومستوى المعيشة والموضات ومايفرضه المجتمع على أعضائه والضرائب التي يعيّنها ويفرضها ، والتي

www.abulhasanalinadwi.org

تكدر صفو الحياة وتستعبد الانسان الذي ولد حراً كريماً ،لقد كان المنتظر من الشعب الألماني بصفة خاصة الشعب الذي بخسته أوربا نصيبه ، وجحدت فضله ، أن يتزعم هذه الثورة المبـــاركة الأصيلة التي تحدث إنقلاباً في وضعه ومركزه وفي أوضاع العالم.

ولكن بالعكس من ذلك ظل شعب ألمانيا عضواً وفياً في الأسرة الأوربية التي لم تبره ، يتجه اتجاهها ويفكر تفكيرها ويمدها بذكائه وبنبوغه ، لا يتخطى الحدود التي رسمتها ولا يخرج من الدائرة التي عيّنتها ، ولا يقفز القفزة التي تغير مصيره ومصير العالم ، وتكتب له الزعامة والخلود وترفع مكانته من بين الأمم ، وترغم جاراته وصديقاته على احترامه وتقديره وإكباره؛ هي القفزة الجـــريئة التي لم يقفزها شعب من شعوب أوربا ، قفزة تخرجه من هذا الإطار الصناعي الضيق الذي تعيش فيه أوربا من قرون ، قفزة تتخطى القديم والجـــديد وتتناسى الشرق والغرب ، قفزة تنقذ العالم من براثن المادية والوحشية ومن النهاية التي قام بها رجال الثورة والانقلاب في أنحاء أوربا في مجال الاقتصاد والإجتماع والسياسة .

لقد كان من المتناقضـات التي يعسر فهمها أن أوروبا الدافقـــة بالحيوية والنشاط ، التي قدرت لها الزعامة في أوسع رقعة من العالم المتمدن ، والتي تكتشف أسرار الطبيعة

www.abulhasanalinadwi.org

وتسخر القوى الكونية ، والتي لا تعرف الخمود والجمود والتعطل والكسل ، تقودها كنيسة تدين بالرهبانية والكهنوت ، ووساطتها بين الانسان وخالقه ، وتؤمن بمبدأ الكفارة والفداء الذي يوحي إلى الانسان بالإعتماد على غيره ويفقده الثقة بنفسه وبمواهبه وبإرادته ، ويضعف في عينه قيمة عمله وضرورة كفاحه ، ثم تظل هذه الكنيسة زمناً طويلاً تحول بين الانسان الأوربي الطموح الفاحص المتحسّس ، وبين العلم والعقل ، وتحرم عليه تخطّي حدود المعلومات والأفكار التي دوّنها مفسرو الكتاب المقدس ، ورجال الكنيسة الأقدمون ، وتعاقب من اعتمد عقله وتجربته وجهر بمشاهدتة واقتناعه عقوبات لم يعرف في تاريخ الأديان أقسى منها ولا أفظع ، حتى تثور أوربا على غلواء هذه الكنيسة وغطرستها وضيق عقلها ، وتفك كثيراً من أغلالها فتنهض النهضة الجبارة التي لا مثيل لها في التاريخ الحديث ، وتقطع أوسع أشواط في العلم والمدنية وعلوم الطبيعة . إلاّ أن هذا الصراع الذي أجهد قواها واستنفذ كثيراً من جهودها وطاقاتها و كانت في غنى عنه أفقدها ذلك الإتزان وذلك الإعتدال الذي كان كفيلاً بالسعادة وفرض عليها ذلك التطرف والمادية التي أصبحت مع الزمن طبيعة الحضارة الغربية ومزاجها الذي لا يفارقهـــا ، ولا تزال هذه الكنيسة مهيمنة على المجتمع الأوربي في كثير من الأقطـــار الغربية ، ولا يزال الأوربي في كثير من الأقطار يتجه في الدين

www.abulhasanalinadwi.org

اتجاهاً لا صلة له بالتفكير ، وفي المدنية اتجاهاً لا صلة له بالدين ، ويلزمه هذا التناقض أينما سار ومهما تطور .

ومن المتناقضات والمآسي التي لا ينساها التاريخ أن أوربا تظل بعيدة عن الدين الذي هو دين التوحيد النقي والعقيدة الو ضحة والذي يتسم بالوضوح والعملية ، والحث على الكفاح ، والاعتماد على النفس ، ويشيد بقيمة العمل الفردي وجزاء الأعمال ونتائجها في الدنيا والآخرة وبقيمة هذه الحياة كجسر إلى الآخرة ومزرعتها ، ويربي في النفس الرجولة والفتوة والشهامة وعلو الهمة ، وتظل بعيدة عن صاحب رسالته الذي يصفه القرآن بقوله المعجز البليغ : « الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم[1] » وقد لعبت الحروب الصليبية ولعب رجال الكنيسة ودعاة النصرانية والمؤلفون في أوربا الذين كانت تسيطر عليهم العاطفة الدينية أكثر من النزعة العلمية ، في إبعاد أوربا عن الدين الإسلامي وعن صاحب رسالته ﷺ دوراً خطيراً فصوّروا لهذا الدين وصوّروا هذا الرسول العظيم أبشع صورة وأفظعها ، وشاعت عن الرسول في أوربا خرافات وأساطير ،

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الأعراف .

www.abulhasanalinadwi.org

وأحاطت به هالة سوداء من قصص وأمثال وأقوال حالت دون فهمه فضلًا عن حبه وتقديره ، ولا تزال نماذجه في الكتب التي أُلّفت في القرون الوسطى أو بعدها بعهد طويل ، لا يزال يردّدها ويعرضها عرضاً جديداً كثير من المتحمسين .

وقد كان هنالك عامل آخر وهو أن أوربا اعتادت أن تنظر إلى هذا الدين من خلال العثمانيين ، واذا فكرت فيه أو تمثلته ، تمثلت الأتراك العثمانيين ، الذين كانوا الممثل الرسمي الوحيد للإسلام في قارة أوربا ، فكانت لا تنظر الى الإسلام نظراً مجرداً بل كانت تتصوره كدين للعثمانيين الذين يغزونها بين حين وآخر ، ويستولون على كثير من بلادها ، وتصدر عنهم أخطاء أحياناً وقسوة أحياناً ، فكان ذلك كله عائقاً عن فهم الإسلام ، الفهم النقي الصافي المؤسس على دراسة وتفكير حر .

وكان لبعد أوربا عن الإسلام نتيجة تأثير بعيد المدى ، كبير الأهمية في تاريخ المجتمع البشري ، وفي اتجاه الحضارة والتقدم ، ولم يكن لأوربا فحسب ، بل كان للعالم كله وضع يخالف هذا الوضع كل الخلاف ، وكانت له خريطة تختلف عن هذه الخريطة كل الاختلاف ، لو دانت أوربا أو أحد شعوبها الكبيرة بالدين الإسلامي واحتضن دعوته وحمل رايته لما رأينا الحياة فاقدة المعنى والهدف ، ولما رأينا الدين والأخلاق فاقدة القوة والسلطان ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولما رأينا الحضارة متجهة إلى الهدم والتدمير ، ولما رأينا الشرق مجالاً للغزو والاستغلال فقط كما هو الوضع الآن .

إن في العالم فراغـــاً لم يملأ من قرون ، هو عدم وجود شعب قوي في الإيمان ، قوي في العقيدة ، قوي في الأخلاق والسلوك ، يحمل الدعوة الدينية الصحيحة ، ويحتضن الرسالة السماوية الأخيرة ، التي تواجه الحياة ومشكلاتها ولا تفر منها ، وتقود ركب الحياة ولا تتبعه ولا تتخلف عنه ، قوي الثقافة العصرية ، بارع وصل إلى درجة العبقرية والإبتكار ، نشيط ، كثير العمل والإنتاج ، هذا هو الشعب المطلوب لتحول العالم من شر إلى خير ، من هدم إلى بناء ، ومن فساد إلى إصلاح ، وقد كان الأتراك الذين يقودهم آل عثمان في القرن الخامس عشر الميلادي ، ذلك الشعب القوي الجديد الذي يستطيع أن يملأ هذا الفراغ الموجود في القيادة العالمية من مدة طويلة ، وقد فعلوا ذلك فملئوا الفراغ الموجود في القيادة الشرقية وتزعموا العالم الإسلامي وأفاضوا عليه قوة جديدة ، ولكنهم لأسباب كثيرة ، منها تأخرهم في العلوم العصرية والتنظيمات الجديدة ، وعـــدم مجاراتهم للشعوب الأوربية في الإكتشاف والإبتكار ، والرقي والتقدم ، ومنها تألب الدول الأوربية عليه ، ورميها لهم عن قوس واحدة ، وتشاغلهم بحروب لا نهاية لها ، لم يستطيعوا أن يقودوا

www.abulhasanalinadwi.org

الغرب كما قادوا الشرق ، وأن يقودوا النهضة الجديدة التي كانت تجيش بها أوربا ، والعصر الجديد الذي كانت تتمخض به ، فبقوا في مؤخرة الركب ، ولا يزال هذا الفراغ بعدهم ينتظر شعباً أوربياً أو شعباً شرقياً يجمع بين قوة الإيمان وقوة العلم ، وقوة الروح ، وقوة المادة ، وخلود الرسالة السماوية وحقيقتها الدائمة ، وبين جدة العلم ومرونة العقل ، وبين ثروة الوسائل الحديثة ، وصحة الغايات والأهداف التي تمنحها الأديان السماوية ، ويحسن تربيتها وتغذيتها الدين الإسلامي الذي هو آخر الرسالات ، وهو القائد المطلوب الذي يملأ هذا الفراغ ويغير مجرى التاريخ ، ويُرغم العصر على أن ينحو نحواً جديداً ، ويمنح العالم المنتحر المنهار قسطاً جديداً من الحياة ، وينقذه من الهاوية التي تنتظره ويسعى اليها بسرعة القوى الذرية وبسرعة الصاروخ .

إن ذلك يحتاج إلى ثورة جريئة تبذ كل الثورات التي أقيمت في الزمن القديم والحديث ، وقام بها الثائرون في ربوعك وفي أحضانك ، إنه يحتاج إلى ثورة شعب بأسره ، إنه يحتاج الى قفزة واسعة فيها الشيء الكثير من المغامرة والمخاطرة ، والإقتحام والتضحية ، قفزة من حياة إلى حياة ، ومن منهج إلى منهج ، ومن دين إلى دين ، إنها قفزة تمنحك من القيادة والزعامة ، ومن الثقة والإحترام ، ومن المهابة والجلال ، ومن الهدوء والسكينة ، ومن الهناء والرخاء ، ما لم

www.abulhasanalinadwi.org

يحلم به أولئك المغامرون ، الذين أقحموك في حربين طاحنتين مدمرتين ويجتمع لك مع القوة المادية والنفوذ السياسي الهداية والتوجيه الصالح ، والقدوة الحسنة ، ويتحقق قوله تعالى :

« ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ،ونجعلهم الوارثين » . مع قوله تعالى: «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

●●●●●●●

www.abulhasanalinadwi.org

حديث مع الشباب المسلم المتعلم في الغرب

« محاضرة ألقيت في المركز الاسلامي في
لندن ، يوم ١٧ اكتوبر ١٩٦٤ م (١) »

أيها الأبناء والشباب ! إنني لا أدعي النبوءة أو الولاية ، ولا أتنبأ ولا أتكهن ، ولا أزعم أن لي عيناً بصيرة تهتك الأستار وتكشف الأسرار ، ولكني أحب الساعة أن أقول : إن في هذا الجمع شباباً يملكون غداً مقاليد الحكم في بلادهم ، ويتقلدون مسئوليات ضخمة دقيقة في أيامهم القادمة ، إنكم تدرسون في في هذه البلاد و كراسي الحكم وعروش القيادة والتوجيه شاغرة فى أوطانكم تنتظر قفولكم وتنتظر قبولكم .

---

(١) نقلها الى العربية لمجلة « البعث الاسلامي » رئيس تحريرها الأستاذ محمد الحسني .

www.abulhasanalinadwi.org

إنني لأرى صورة هذا المستقبل الرائع في ملامح وجوهكم ، وفي جباهكم الوضيئة المشرقة ، كان هناك في الزمن الماضي طريق واحد للوصول الى الحكم ؛ طريق الساعد المفتول والسيف المسلول ، وقد ضرب الإسكندر وقيصر وهولاكو مثلاً رائعاً في فتح العالم وتسخير الشعوب والأمم ، بظبة السيف وسنان الرمح ، ولكن الزمان تغير ، فأصبحت القوة الحربية لا تغني في ذلك إلاّ قليلاً ، وأصبحت القوة العلمية في الدرجة الأولى للحصول على القيادة والإستيلاء والحكم الجمهوري .

إن الطريق الذي اتخذته الدول المتقدمة الراقية والدول الإسلامية في هذا العصر ، وتلك الملابسات التي أحاطت بها والمشكلات التي واجهتها ، تبدي بوضوح ، أن الذين يرثون قيادتها وتوجيهها هم رجال تضلعوا من العلوم العصرية ، وأتقنوا اللغات الغربية ، وتزودوا بكفاءات ومؤهلات تؤهلهم إلى مناصب الحكم في النظام الديمقراطي المعاصر .

إن هذه الفرص والتسهيلات التي تتمتعون بها للدراسة في هذه المراكز العلمية والثقافية الهامة تدل على أنكم ستصلون إلى هذه المناصب في وقت قريب ، وهناك تجدون فرصة سانحة لأداء بعض الواجب نحو بلادكم وشعوبكم ، والتأثير في اتجاهها بقسط

www.abulhasanalinadwi.org

أكبر ونصيب أوفر ، إنه امتحان خطير دقيق لكم ، لأن مصير هذه البلاد ومستقبلها يتصل بنفوسكم – على أكبر حد – اتصالاً مباشراً وثيقاً .

إن هذه البلاد التي غادرتموها وتنتمون إليها وسوف ترجعون إليها إن شاء الله بعد إنهاء دراستكم ، بلاد مسلمة عريقة في الإسلام ، وهي على عهدها القديم في الثباتِ على المبدأ والوفاء بالأمانة ، إنها وصلت إلى هذا الإسلام على جسر من الدماء والدموع ، فهو أحب إليها وأغلى عندها من أي شيء آخر ، إن الأغلبية الساحقة في هذه البلاد للمسلمين وكثير منها تفوق الدول الأوربية في مساحتها ورقعتها وعدد أهلها ، وإنها – فضلاً عن ذلك – تعج وتطفح بالثروات العظيمة والمعادن الكريمة ، وإنها ثروة طبيعية لا تدور بدونها عجلة الغرب ،إنها أفاضت على العلوم والصناعة قوة جديدة ، ومنحها قسطاً جديداً من الحياة والتقدم والرخاء ، وليست هناك دولة تزاحم هذه البلاد المسلمة في المواد الخام .

وبجانب هذه الثروات الصامتة إن شعوب هذه البلاد غنية زاخرة بالمواهب الإنسانية والطاقات البشرية والقوى الخلقية والمعنوية ، ولا تزال فيها القدرة على الجهاد والحنين إلى الشهادة ، وعاطفة التضحية ، وحب الإيثار ونفحة الحب والوفاء والفداء

www.abulhasanalinadwi.org

ما لا يوجد له نظير في شعب من شعوب العالم، إن الذين ساحوا في العالم وزاروا كثيراً من الشعوب والأمم ورأوها عن قرب وكثب يشهدون أن أي شعب في العالم لم يسبق هذه الشعوب المسلمة البريئة النقية المخلصة في هذا الشأن حتى الآن ، إنها لا تزال فيها شعلة الحياة وبإمكانها أن تبرز كأكبر قوة على وجه الأرض إذا نالت القيادة الرشيدة والتوجيه الصحيح ، إنها لا تزال تنفرد ببساطتها ، وثقتها بقيادتها ، وحماسها ، وعاطفتها ، وانقيادها وطاعتها ، ولكن هذه الملكات والطاقات والمواهب والمؤهلات لم تجد لها منفذاً ولم تجد لها مظهراً منذ أمدٍ بعيد ، إن قيادتها (Leader Ship) تجهل قيمتها ، وهي لا ترغب في استخدام هذه المواهب ولا تقدر عليه .

إذا سألني أحد ، ما هي أهم مشكلة وأعمها في العالم الإسلامي ؟ قلت بلا تأمل ولا تلعثم ، إنها مشكلة القادة والشعوب ، إنها مشكلة الفجوة الهائلة التي وقعت بينهما ، والتي أدت إلى صراع فكري يستمر بين الجماهير والطبقة الحاكمة المثقفة .

إن هذه الشعوب تستميت في سبيل الإسلام، إنها تريد أن تحيا في سبيله وتموت في سبيله ، انها لا تفهم لغة غير لغة الدين، ولا تعرف أسماء وشعائر ومصطلحات غير أسمائه وشعائره ومصطلحاته ،

www.abulhasanalinadwi.org

إنها لا تتحمس لشيءٍ غـــير الله ورسوله ، والجنة والآخرة ، والجهاد والشهادة، وهو الهتاف الوحيد الذي تهتز له أوتار كيانها وتفور به دماء عروقها ، وتحدث فيها نشوة الحب والوفاء ، وتهون عليها التضحية والفداء .

إن هذا الهتاف وهذا النداء وهذه الدعوة هي التي أسكرت المسلمين في الجزائر ، وألهبت عواطفهم ودفعتهم إلى تضحيات لا يوجد لها نظير في العصر الحديث وشجعتهم على المضي في جهادهم المرير حتى جاء وعد الله .

إن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالشريعة الإسلامية والدستور الإسلامي ويثقون بسموه وتفوقه وخلوده ، إنهم يحبون المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية ، إنهم يتمنون ويحلمون أن يروا الشريعة والحياة الإسلامية ، وكلمة الله عالية ظاهرة ، سائدة في بلادهم .

ولكن من المآسي التي يذوب لها القلب ، ويتقطع بها الفؤاد أن هذه الطبقة التي ملكت زمام قيادة الشعوب وحكمت في رقابها ، عاشت طوال حياتها ونالت تربيتها في محيط لاصلة له بهذه العقائد والأفكار ؛ وبهذه الآمال والأحلام ، إن جهازها الفكري وضع بعيداً عنها فصار غريباً عليها ، إن شباب هذه الطبقة وأذكياءها تثقفوا وتربوا في نفس العواصم التي تدرسون فيها الآن ، وإن أساتذتهم اقتنعوا بهم بل غرسوا في عقولهم أن

www.abulhasanalinadwi.org

عصر الإسلام ولىّ من غير رجعة ، وأنه لعب دوره المحدود الضيق النافـــع إلى حد في زمن خاص مضى ، وهو لا يحمل الآن رسالة لهذا العالم المتحضر والمجتمع الكبير ، وليس بإمكانه أن يساير هذا المجتمع المتطور أو يتفاهم معه في أي حال من الأحوال .

أليس هـــذا من المؤلم المخجل أن تكون الشعوب مسلمة متحمسة لإسلامها ، قادرة على أن تنجب أمثال محمد بن القاسم ، وطارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، ومحمد الفاتح ، وأن يكون قادتها وحكامها متزعزعين في ثقتهم بدينهم ، أو أنهم فقدوا هذه الثقة على الإطلاق يائسين من عودة الإسلام ، وهم لا يجدون في أنفسهم ميلًا إليه ورغبة فيه .

إنهم جاؤا إلى الغرب ليأخذوا منـــه وسائل وأدوات ومعلومـــات تنفع الإسلام والمسلمين ، إنهم جاؤا إلى الغرب ليدرسوا فيها العلوم الطبيعية والتطبيقية والصناعية وما شاكلها من العلوم التي سبق فيها الغرب على الشرق ثم يسخروها للإسلام ويستخدموها لأهدافهم الإسلامية ، ويضعوها تحت تصرفها وفي خدمتها .

إنهم جاؤا إلى هذه البلاد ليضموا علومهـــا إلى إيمانهم ثم يفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق مثل قناة السويس التي

www.abulhasanalinadwi.org

تعرفونها ، ولكنها قناة تقوم على أساس النفع المتبادل العادل ، قناة تحمل بضاعة الإيمان والعمل الصالح والدوافع الخيّرة إلى الغرب ، وتنقل ما شاءت من وسائله البريئة الصالحة إلى الشرق .

فماذا كان ؟!

إن هؤلاء الذين علقنا بهم الآمال الكبار ، الذين تقع عليهم مسئولية هذا الأمر خيبوا ظنوننا وضحكوا على ذقوننا دائماً ، إنهم عادوا جهالاً لا يعرفون غير التبعية والتقليد ، إن علمهم تجرد من أي نوع من الأصالة والابتكار والذكاء والإجتهاد ، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف والأتباع والأذيال ، بدلاً من أن يكونوا أئمة الهدى وقادة الإنسانية ، وحملة النور وكتائب الإنقاذ .

أيها الأبناء ! إنكم ما جئتم إلى اوربا لتذوبوا أمام بريقها كالشمعة ، إنكم جئتم هنا لبناء عالم جديد ، إن أولاد إبراهيم ومن دخل في دينه وملّته هم وحدهم يقدرون على بناء هذا العالم ، إن الأيدي النظيفة العادلة الأمينة التي رفعت قواعد البيت المحرم في مكة المكرمة هي وحدها تستطيع أن ترفع قواعد العالم الجديد من جديد .

www.abulhasanalinadwi.org

إنكم ما جئتم إلى الغرب لتقلدوا أهل الغرب فيما درستم فيه كالببغاوات أو تتظاهروا أمامهم بتقليدهم ومحاكاتهم كالقرود.

إن الشرق ليس بحاجة إلى ببغاوات وقرود أبداً ، إنه في حاجة إلى أبطال مغامرين ، وأذكياء نابهين وعلماء مبتكرين ، ودعاة مؤمنين ، يقولون للغرب إذا أخطأ أخطأت ، واذا أصاب أصبت ، ويثورون على نظامه وحياته ، ويشنون عليه حرباً لا هوادة فيها ، وينقضون عليه كالصقر ويعلنونها واضحة صريحة « كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » .

أما أولئـــك الذين لا يعرفون إلا قولاً واحداً ، أصبت وأحسنت في كل ما فعلت ! فالشرق منهم بريء وهو لا يحتاج إلى مثل هؤلاء .

إنـــه لا قيمة للحواشي والعبيد الذين رفعوا الغرب على رؤوسهم ، وداسوا الشرق تحت أقدامهم ، إن القادة المعاصرين في تركيا وأندونيسيا ومصر لم يثبتوا تفوقهم ودورهم الإجتهادي الأصيل ، إنهم ضحوا بأعز مـــا يملكون في سبيل القيم الغربية واستيلاء الغرب ، وكان ما نالوا جزاء على هذه التضحية شيئاً حقيراً تافه بالنسبة إلى ما ضحوا به وما فقدوه .

أيها الاخوة الأعزاء ! إن الذين أوفدوكم إلى هذه البلاد لا

www.abulhasanalinadwi.org

يرضون منكم بأن تكونوا علماء خبراء وصناعيين ، وأدباء باللغات الأوروبية فحسب . إنهم يريدون منكم أن تمثلوا براعتكم وذكائكم وابتكاركم واجتهادكم في هذه العلوم العصرية، إذا كنتم طلاب الحقوق فعليكم أن تتضلعوا من التشريع الإسلامي ثم تدرسوا مبادىء القانون العالمي لتثبتوا تفوق التشريع الإسلامي إزاء القوانين الوضعية الأرضية ، وتعودوا إلى بلادكم قائلين شاهدين بأن الغرب الآن في اسوأ حال ، وهو كالثمر الناضج لا يدري أحد متى يهوي على الأرض .

أما إذا رجعتم إلى الشرق وقلتم إن الغرب كله خير ، وليس فيه شيء يؤخذ عليه ، فقد خدعتم أمتكم وكذبتم على أنفسكم .

يجب عليكم أن تشرحوا لاخوانكم بعد العودة محاسن الغرب ومخازيه سواء بسواء ، وتصوروا جوانبه الجميلة ، وسر قوته ونهضته ، والنواحي التي تجدر بالتقليد ، مع عيوبه وأدوائه التي تنخر كيانه ، والجذام الخلقي الذي أصابه، والنواحي التي يجب أن تمقتها ونفر منها كما يفر الصحيح من المجذوم ، والأمور التي لا تجدر بالتقليد والاتباع ، والتي لا صلة لها بقوة الغرب وسر نهضته واستيلائه على العالم .

أيها الإخوان ! إنني إذا أعدت ما قلت لكم الساعة أمام

www.abulhasanalinadwi.org

القادة والزعماء السياسيين في كراتشي وجاكرتا والقاهرة ، ودهلي أو أي عاصمة شرقية كان ذلك بعد فوات الفرصة ، لأنهم وصلوا إلى نقطة لا عودة منها ، ورسخت فيهم الأفكار والعادات ، إلى حد لا يمكن تحويلهم منها ، إن العقلية والتفكير والقلب يُصنع في هذا المعمل ويعمل عمله في الشرق ، فالمحل اللائق لهذا الحديث ، المحل الذي يصنع فيه هذا الجهاز الفكري هو أنتم الذين ستقودون بلادكم وشعوبكم في المستقبل فإذا أدركتم مدى قوة أمتكم وأهميتها وآمنتم بقوة الاسلام الداخلية وحيويته ، فقد أصبتم الهدف وحققتم الأمل .

إن هذه البلاد العظيمة الغنية التي تنتمون إليها أمانة في أعناقكم ، إن هذه القوى الكبرى وهذا المجتمع الكبير هو من حسن حظكم وسعادتكم ، فسيروا على بركة الله واستعرضوا اقتصاد هذه البلاد وذخائرها وثروتها الطبيعية والإنسانية ، واستخدموا علومكم وخبرتكم في الانتفاع بها في سبيل أهدافكم الإسلامية البعيدة ، واضربوا مثلاً في الاخلاص والخدمة التي لا تشوبها منفعة ذاتية ومصلحة شخصية .

إنكم إذا فعلتم ذلك ووصلتم إلى مكانتكم اللائقة في القيادة الإسلامية ظفرتم بكلمة باقية وقمة عالية في التاريخ والإنسانية ، قمة لم يصل إليها بل لم يحلم بها كمال أتاتورك ، وجمال

www.abulhasanalinadwi.org

عبد الناصر وبن بيلا ، وأحمد سوكارنو ، ولا أي قائد آخر في الأقطار الإسلامية بأسرها ، إنها مكانة الحب والقبول العام وإحياء الإسلام ، مكانة العمل الخالص لوجه الله والجهاد لإعلاء كلمة الله وهي مكانة لا يتشرف بها إلا أفذاذ من السعداء في التاريخ .

إنه الطريق الوحيد الذي ينقذ العالم الإسلامي من ذلك الصراع الفكري والتنازع الطبقي والفوضى الفكرية .

أيها الاخوة الأعزاء !

إعرفوا نفوسكم واعرفوا شعوبكم وتأملوا في هذه الإمكانيات الواسعة العظيمة المدهشة لفتوحكم وانتصاراتكم وطموحكم وطيرانكم، واكتشفوا هذا العالم الجديد المجهول الذي انصرف عنه المغامرون وزهد به الطامحون .

وإذا لم تُصغوا إلى حديثي ، فاصغوا إلى حديث قلبكم وإذا لم تفهموا لغتي فافهموا لغة ضمائركم وأنصتوا إليها .

www.abulhasanalinadwi.org

إلى الشاب المسلم المقيم في ديار الغرب (١)

أخي العزيز !

تحياتي إليك على بعد الدار ومن وراء البحار، تحيات صادرة من قرارة القلوب وأعماق النفوس ، مغمورة بالاخلاص وعاطفة الأخوة الإسلامية الصادقة .

إن وجودك في قلب أوروبا أو أمريكا وفي مصدر الحضارة الغربية العالمية والنشاط الثقافي أو الصناعي الذي غزا العالم ، لا أعتبره حادثة اضطرار لم تكن عن رضا واختيار ، ولا مأساة تستحق المواساة ، إنما أعتبره – مهما كانت الأسباب والدوافع لهذه الهجرة المؤقتة أو الدائمة – هبة من الله وتيسيراً منه وفتحاً من الفتوح التي سعد بها الإسلام والمسلمون في تاريخهم الطويل .

---

(١) كتب باقتراح المركز الاسلامي في جنيف ، نشرته مجلة « المسلمون » في عددها الثالث من سبتمبر ١٩٦١ م ص ١٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

إنها سعادة ومكسب لك في حياتك الشخصية المحدودة ، وسعادة ومكسب للمجتمع الذي تعيش فيه ، المجتمع الذي قدر له أن يسوق العالم ويملي عليه إرادته وهواه . المجتمع الأوربي بالمعنى الواسع الذي يشمل أمريكا وروسيا .

إنها فرصة تفتح فيك كوة جديدة للإيمان والثقة بالإسلام ، والاقتناع بما حواه القرآن ، ودعوة الأنبياء في عصورهم ، ودعوة آخر الرسل في عصره الذي لا نهاية له إلا بنهاية هـــذا العالم ونهاية الحضارة البشرية ، كوة لا تنفتح إلا في مثل المجتمع الذي تعيش فيه اليوم ، وفي « معمل » الحضارة الغربية الذي لا يوجد في الشرق وفي بلاد الإسلام ومهد الحضارة الإسلامية .

وهي تفتح كوة جديدة في المجتمع الأوربي ، تجربة جديدة في عالم الأفكار والقيم ، وصدمة للفكر الأوربي ، وتحريك له بعد ما جمد وتوقف عن الابتكار والثورة منذ زمن طويل . واشتغل بالاعادة وعمل « الاجترار »[1] لا يطلب جديداً أو لا يأتي بجديد .

أما فيما يخصّ نفسك ــ أيها الشاب المسلم المغترب ــ فقد

---

(١) اجتر البعير : أعاد الأكل من بطنه فمضغه ثانية .

www.abulhasanalinadwi.org

قالوا إن المجتمع الإنساني المتمدن يمكن ، لا بل يجب أن يقوم على غير أساس الإيمان وتعاليم الأديان والقيم الخلقية والرسالات السماوية ، إنه يستطيع أن يقوم على أساس العلم والتنظيم ، والصناعة، والاقتصاد ، والوعي السياسي ، والقومية، والوطنية، والاتفاقات ، والتعهدات الاجتماعية الدستورية ، وإن المجتمع يسعد ويترّفه بالوسائل والآلات التي تمنحها علوم الطبيعة والكيمياء، وتسخير الكون والطبيعة لصالح الإنسان ورغباته وطموحه ، وتذليل العقبات التي كانت نتيجة الجهل للعلوم الكونية والطاقات البشرية ، وإن سر شقاء الإنسان في العصر الماضي صعوبة التعارف والتفاهم بين أعضاء الأسرة الإنسانية في أنحاء الأرض ، وفي مختلف القارات والأقاليم .

لقد ألح الغرب على هذا المعنى وتحمس له تحمس المؤمنين الجدد،وكان هتافه « لا إله ولا دين،ولا غيب ولاإيمان،ولا روح ولا أخلاق ولا آخرة » وانما هو حس وتجربة، أو لذة أو منفعة، أو قومية ووطنية، أو غريزة وعاطفة ، أو ديمقراطية وجمهورية، أو اشتراكية وشيوعية . وبرز في الميدان أئمة هذه الفلسفات وأبطال هذه الدعوات وتلاميذهم ومعارضوهم على اختلاف فلسفاتهم ونزعاتهم وكثرة مذاهبهم ، وتوزعوا العالم الغربي ، وخضع لهم كل شيء وازدهرت مدارسهم مدة طويلة ، ولا تزال تسيطر على العقول والآداب، ومراكز السياسةودور الاختبار،

www.abulhasanalinadwi.org

والمجتمع الأوربي المعاصر قد اقتبس من كل هؤلاء وتأثر بجموعهم في قليل أو كثير، وآمن بالقدر المشترك بينهم وهو « المادية ».

مُنحت أوربا فرصة تحقيق هذه المبادىء التي آمنت بها في سخاء وحرية لا نظير لها في تاريخ الحضارات ، وهي أطول فرصة مع أعظم مقدار من الآلات والوسائل والتسهيلات التي تمنح القيادات في التاريخ ، على يد عمالقة نوابغ عبقريين في العلم والإختبار والتنظيم والإدارة ، وليست على وجه الأرض قيادة تعارض هذه القيادة أو دولة قوية تعرقل سيرها ؛ وقد وضعت الكنيسة النصرانية أوزارهـــا قديماً أمام طموح أوربا المادي والفكري ، والنهضة العقلية الوثابة التي لا قبل لها بها ، وخضع الشرق الإسلامي لغزواتها السياسية والفكرية ، في القرن التاسع عشر المسيحي وخلا لها الجو ، ودان لهـــا العالم بشرقه وغربه وشماله وجنوبه .

لقد أمكن أوربا المادية أن تبرز جميع مواهبها ، وأن تمثل « الماديه » على المسرح العالمي في جو مملوء بالهتاف والتصفيق ، والتأييد والتصديق ، فاذا كان لمسرحية في العالم أن تنجح كان ذلك لهذه المسرحية التي يمثلها أبرع رجال في أوفق أحوال .

ولكن ماذا كان؟ أخفقت هذه المسرحية التي كانت حصيلة

www.abulhasanalinadwi.org

أذكى عقول بشرية وأغنى قرائح إنسانية في أهدافها ومراميها إخفاقاً لم يعرف في التاريخ .

عداء داخلي وخارجي ، وصراع بين الأفراد والطبقات والشعوب، غيوم الحرب الكثيفة التي تغشى العالم كله وبركان متهيء للانفجار لأدنى مناسبة ، ونذر صارخة لنهايه البشر الأليمة وفقدان الثقة والهدوء والأمن العاطفي ، وتسلط الذعر والفزع على الأعصاب ، وقلـــق دائم ، وتفسخ خلقي كبير يتخطى القياس ، وفراغ روحي هائل لا يملؤه شيء ، وسآمة لا نهاية لها ولا علاج ، وتشاؤم ويأس وحيرة .

إن قصة إخفاق الحضارة الغربية قصة معادة مكررة ، ولكنها قصة يجب أن تُروى وتُتلى ، وتعاد وتكرر، وهي قصة تهم الإنسان في كل مكان وتتصل به .وبحياته من أقرب طريق، ولأن في الشرق من لا يزال يؤمن بعصمة هذه الحضارة وقدسها ولا يصدق أن مثلها يخفق ويخيب ، أو أنهـــا قد أفلست في معنوياتها وهو يراها تبرهن على وجودها وقوتها في الشرق والغرب .

إنك أيها الشاب المسلم المغترب بمسمع ومرآى من هـــذه الحضارة ، تكتوي بنارها وتعيش في وسطها ، وتشاهد إخفاقها

www.abulhasanalinadwi.org

وتهيؤها للانهيار في كل مكان ، تشاهد ذلك في أخلاق الساسة وقسوتهم وموت العاطفة الإنسانية في قلوبهم ، وفي أخـــلاق الشعب ، ورخص قيمة الأعراض في عينه ، وهدر الكرامة الإنسانية وضياع القيم الخلقية وفشو الجنايات والسفالات في المجتمع ،وعجز قادة الفكر والسياسة عن إيجاد رسالة إنسانية تنفخ روحاً جديدة في المجتمع ، وتسوق الأمم نحو هدف واحـــد وتجمع شملها ، وعن ملء الفراغ الروحي وعن إعادة الهدوء والسلام ، والثقة بالإنسان ومستقبله إلى غير ذلك مما يتسم به هذا المجتمع الراقي الذي بلغ أوج الحضارة والتنظيم والوعي .

يتجلى لك بعد ما شاهدت هذه الآثار أن كل مجتمع لا يقوم على أساس « الايمان » إنما هو مجتمع يقوم على شفا جرف هار ، لا بد له أن ينهار ، وإن طال أمده واتسع سلطانه ، ولا سبيل إلى « الايمان » إلا دعوة الأنبياء والرسل وسيرتهم ، الذين يملأون الأمم الواسعة والجماهير الكثيرة بالروح الخلقية وقوة الايمان والإنسانيةالسامية التي ليس فوقها إلا الصفات الآلهية ،ويشعلون قلوب الملايين ـ من غير مدارس وجامعاتومجامع علمية ووسائل للنشر والتأثير ـ إيماناً وحماسة وزهداً في المطامع والزخارف ، وقوة مقاومة للشهوات وإيثاراً للآخرة على العاجلة ، وإيثاراً لغيرهم على نفوسهم ، وحباً لله الذي لا يرونه بعيونهم ولا تتناوله حواسهم ، والتفاني في رضاه . وهذه سيرتهم ، و كتب التاريخ

www.abulhasanalinadwi.org

تحكي عنهم وعن أتباعهم كل غريب وكل معجب ، ولولا التواتر ، ولولا الآثار لسارعت النفوس إلى تكذيبه والشك فيه ، وهم الذين أنقذوا البقية الباقية من الحضـــارة والمجتمع البشري من رسل الهمجية والفوضى والوحوش مرات عديدة، وحفظوا السفينة البشرية من الغرق في آخر لحظة، وفيها التراث الحضاري وكل ما شاده البشر في آلاف من السنين ، وصانوا القيم الخلقية والمفاهيم الصالحة من الضياع والتلف إلى آخر الأبد ، ومدوا في أجل السلالة البشرية ومنحوها — بجهادهم الطويـــل وإخلاصهم العميق — حق البقاء وجدارة الحياة .

ومن المقرر المشاهد الذي لا شك فيه أن هذه الأديان التي أسعفت الإنسانية في أزماتها ومحنها المختلفة ، وفضلها لا يُنسى في تاريخ المدنية ، قد فقدت قوتها وحياتها مع امتداد الزمان وطوارق الحدثان، وأصبحت فتيلة قد نفد زيتها واحترق خيطها، أو كحبوب عصرت إلى آخر قطرة فهي لا تسمن ولا تعني من جوع ، وهي ليست من القوة والحياة بمكان تستطيع فيه أن تقاوم هذه المدنية القوية واغراءاتها الجارفة ، وليس في الذين لا يزالون يدينون بها ويحملون أسماءها ثقة بهذه الأديان وصلاحها لكل زمان ومكان ، وحماسة للدعوة إليها والجهاد في سبيلها ، ولمواجهة المدنية العصرية وتحدياتها ، وجلهم أو كلهم قد وضع أوزاره أمام المادية الغربية واعتزل المعترك، وآمن بأن «المادية»

www.abulhasanalinadwi.org

لا مفر منها ، وأنها مصير الإنسانية المحتوم .

إنمـــا هنالك ــ أيها الأخ المسلم الشاب ــ دين لا يزال في حياته وأصالته ونقائه ، ولا يزال أهله يعتقدون أنهم مأمورون بتبليغ الرسالة وإنقاذ المدنية والحسبة على الإنسانية، ومسئولون أمام الله وأمام الخلق عن اتجاهات هذا العالم، ويمتازون بين أهل الأديان بأربـع ميزات بارزة :

أولها : وجود هذا الكتاب العظيم المتدفق بالحياة الكفيل بسعادة البشرية وتوجيهها ، يحمل أعظم علم وأعمقه بين دفتيه ، ويملك أعمق تأثير في القلوب والعقول،وهو ثروة البشرية العظمى والمعين الذي لا ينضب ، والمدد الذي لا ينفد ، قـــد أحدث أعظم ثورة في تاريخ البشرية ، ويستطيـع إذا وأطلق له العنان وحُكّم في قيادة الإنسان أن يحدث أعظم ثورة أخرى .

والميزة الثانية : هذه السيرة النبوية العطرة التي هي أجمل صورة على الإطلاق في مجموع الصور البشرية الغنية ، وأعظم صفحة مشرقة في تاريخ البشر تعيد إلى الإنسانية كرامتهـــا ومكانتها ، وتعيد الثقة والاعتزاز في نفس الإنسان بأشرفية النوع الانساني ، الصورة التي لا يملك أمامها الإنسان ــ إذا لم يفقد حسّ الجمال وحب الكمال ــ إلا أن يفتخر بأنه من نوعه ومن بني جنسه ؛ ويتمنى أن يتسامى بتقليده للصورة التي يجد

www.abulhasanalinadwi.org

فيها كل انسان قوة وسكينة وأسوة وقدوة ، وحياة وتوجيهاً، وجوانب مشرقة تفتح منافذ جديدة ، وتثير معاني جديدة ، وهذه الصورة لا تزال بملامحها وقسماتها الأصيلة لم تطوها يد الزمان .

والميزة الثالثة: وجود الشريعة الإسلامية كما تركها صاحب الرسالة محفوظة في أصلها وأساسها ، غنية في ثروتها الفقهية، صلبة مرنة لا تتنازل عن القديم ولا تتجهم للجديد ، لا تخجل من ماضيها ولا تفر من حاضرها ، تالدة خالدة ، صالحة لكل عصر وبيئة ، تعطي الأسس الحكيمة التي يقوم عليها مجتمع جديد وحضارة صالحة .

والميزة الرابعة : وجود العاطفة الدينية القوية في المسلمين ، على علاتهم ومواضع الضعف فيهم ، وانقيادهم للدعوة الدينية وخضوعهم لها إذا وُجد الدعاة المخلصون ، وهذه قوة قد فقدها وأفلس فيها عامة الأمم الغربية ، وهي قوة لا يعرف قيمتها إلا من اشتغل بالدعوة والتجديد الديني في أمة من الأمم ، ومن رأى إخفاق هؤلاء الدعاة في إعادة الحياة الدينية والروح الدينية في هذه الأمم .

وأنت أيها الأخ المسلم المغترب في أوربا وأمريكا تشارك هذه الأمة العظيمة في هذه الميزات، وأنت عضو في هذه الأسرة العظيمة ورثت كل ما ورثته أسرتك الإسلامية العالمية ، ليس بالمعنى

www.abulhasanalinadwi.org

الذي يفهمه الجهلاء من عضوية أسرة كريمة فاضلة وليس بمفهوم التراث كما يتصوره كثير من الباحثين والمستشرقين فيضعون كتباً في التراث الإسلامي (Legasy of Islam) ولكن بالمعنى الرفيع العميق الذي يفهمه العقلاء من أعضاء أسرة مثلت دوراً ممتازاً في خدمة العلم والدين، فعليك أيها الأخ الفاضل أن تدرس الإسلام من جديد، وفي ضوء هذه الميزات التي عرضناها باختصار وأن تفقه الإسلام وتجيد فهمه وتتعمق في دراسته، وأن تقبل على استعراض القرآن والتدبر فيه كأنه كتاب عرفته حديثاً، وإن شئت فقل نزل انفاً جديداً، وأن تدرس السيرة النبوية والحديث النبوي وتكثر من قراءتها، وتحاول أن تتصل بالرسول الأعظم ﷺ إتصالاً شخصياً، إتصالاً مؤسساً على الدراسة والتفكير والحب والعاطفة والإجـــلال والتقدير والإتباع والتقليد.

ثم عليك أن تمثل هذا «الاسلام» تمثيلاً صحيحاً في أوروبا وتظهر بالعقيدة الاسلامية وتحافظ على فرائض الاسلام وأخلاقه وشعائره في شجاعة وثقة، لأنك تمثل أفضل دين وأصح عقيدة في بيئة تفتقر إليها أشد افتقار، وبذلك تحسن إليها وتحسن إلى كثير من زملائك وإخوانك المسلمين وإلى الذين هم في سنك في الشرق الإسلامي الذين يخجلون من تمثيل الاسلام والظهور في مظهره في الحواجز الإسلامية والجامعات العربية، وتُسنّ لهم

www.abulhasanalinadwi.org

سنة حسنة لك أجرها وأجر من عمل بها، وبهذه الحياة الإسلامية النزيهة العفيفة التي فيها الصلاح والتقوى ، والصدق والأمانة ، والذكر والعبادة ، والرضا والقناعة ، والنشاط والقوة ، ورقة العاطفة واشراق الروح، تستطيع أن تجذب إلى الإسلام عدداً كبيراً من أصدقائك وزملائك وأساتذتك، وجيرانك. وهكذا دخل العدد الأكبر من المنصفين والعقلاء في حضانة الإسلام في البلاد التي لم يغزها جيش إسلامي ولم يلمع فيها سيف مجاهد .

قد تكون أيها الأخ الكريم تلميذاً في جامعة ، أو عاملاً في مصنع ، أو موظفاً في مصلحة ، وقد تكون صغيراً في ثقافتك أو وظيفتك أو مكانتك الاجتماعية ولكنك كبير في عقيدتك ودعوتك ، فأساتذتك في الفنون التي تدرسها أساتذة وشيوخ لهم عليك حقوق وفضل ، والإسلام أول من يعرف لصاحب الفضل فضله ولكنهم في حاجة إلى أن يفهموا الإسلام ويروه ممثلاً في شخصك ، وأنت بذلك في منزلة المرشد والموجه ، فاعرف قيمتك ، وقدر مسئوليتك وأدِّ حقوقها وأحسن القيام بها .

وأعود فأقول إن وجودك في أوربا وأمريكا فرصة غالية يجب أن تنتهزها ، ويجب أن تستغل لصالح الإسلام ولصالح الإنسانية ، ووجودك في هذه البلاد يقوي إيمانك وثقتك بالدين الذي أكرمك الله به ، ويفتح طريقاً جديداً لتقدم الإسلام في

www.abulhasanalinadwi.org

في هذه البلاد وانتشاره في هذه الناحية التي حرمت نعمة الإسلام من زمن بعيد ، وتهيأت لها القيادة والسيطرة على العالم فكان في ذلك شقاؤها وشقاء الناس لأنها كانت من غير منهـــاج نبوي ، ورسالة سماوية عالمية ، ومؤهلات خلقيّة وروحية ، ولعـــل وجودك وجهادك يتداركان هذا الخلل ويملأان هذا الفراغ ، والله ولي التوفيق.

www.abulhasanalinadwi.org

إلى قيادةٍ من نوعٍ جديد (١)

ليس يجهل أحد مابين الأمم والحكومات ، والأحزاب والجماعات من منافسة حادة وصراع عنيف ، لا يخلو منه بلد ولا مكان ، وقد تجلى صراع الأمم والحكومات في الحرب الأولى والثانية ويتجلى صراع الأحزاب والجماعات في الانتخابات وفي تغير الحكومات،وسقوط الوزارات،ويتجلى صراع الأفراد في اللجان والهيآت ، إن المنظمات والأفراد كلهم في تنافس شديد ، وصراع دائم فهل فكرتم فيما هذا التنافس ولأي شيء هذا الصراع ؟!

إن وضع الجهاز الإداري للإنسانية وإن اتجاه المجتمع ليس فيها كبير خلاف من الأحزاب والهيآت ، وبين الشعوب

---

(١) خطبة ألقاها المؤلف في بلد صناعي كبير في الهند في حفلة كبيرة حضرها عدد كبير من غير المسلمين ومن أعضاء الاحزاب السياسية نقلها الى العربية لمجلة « المسلمون » الغراء الاستاذ رضوان على الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

والحكومات ، فليس هناك صوت يعلو ضد كل ما يجري من العبث بكرامة الإنسانية والإهدار لقيمها الرفيعة وإفساد الحياة العامة ، إنما الخلاف فيمن يتولى إدارة هذا الجهاز فكل ينادي بأعلى صوته إلينا ! إلينا ! يجب أن تختارونا نحن لإدارة هذا الجهاز المضطرب ! وكأنه لا اعتراض على أن الآلة تدار في غير وجهتها ، إنما الإعتراض كل الاعتراض والنقمة كل النقمة على أنها لا تدار بيدنا نحن ، فالجشع والأثرة ، والرشوة والخيانة والفسق والتحلل كلها سائغ مقبول لا نكر فيه ولا ضير ، إنما الضير كل الضير أن لا يجري كل ذلك تحت إشرافنا ولا يكون لنا شرف حراسته ورقابته ، ولا يكون لأصدقائنا أو أقربائنا أو رجال حزبنا أو بني قومنا فرصة التمتع بهذه الأوضاع .

على هذا الأساس تحاربت الأمم وعلى هذا الدرب سارت انكلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا ، فحنقت كل منها على الأخرى أن تكون هي المسيطرة على العالم والمشرفة وحدها على كل ما يجري من فساد ودمار وعبث وهزل ، وكذلك شأن الأحزاب والجماعات ، إنها لم تغضب قط للحق المضاع ، أو لأن أخلاق الإنسان إلى انحطاط مفزع ، أو لأن الرذائل قد طغت على الفضائل ، أو لأن النزعة الجنسية جامحة عاتية ، أو لأن الحكومات قائمة على الجور وابتزاز الأموال والمحسوبيات ؛ إنها تغضب لأن كل ذلك يجري تحت إشراف دولة أخرى ، أو عصابة أخرى ، وهي التي تنتفع بهذا الوضع ، وترجع فائدته

www.abulhasanalinadwi.org

إلى تلك الدولة أو إلى هـــذه العصابة ومن يتصل بها من أسر وأفراد وأنصار ، فليس الخلاف في هذه الأوضاع الاجتماعية الفاسدة المضطربة ، وليس الحرص على إصلاحها وتقويمها ، إنما الخلاف والنزاع على من يتسلم زمامها ويشرف على هذا الظلم والإجرام ، ويتمتع أنصاره ومرشحوه بالفرص التي تتيحها هذه الفوضى ، ومن يقيم أفراحه على أشلاء المسلوبين المنكوبين ، ويشيد صرح كبريائه على أنقاض الإنسانية المحطمة .

ترون في كل بلد وإقليم بعد الإنتخابات يجلس على كراسي المناصب أناس جدد بعد فترة من الزمن، فهل رأيتم أحداً يدخل المجلس وهو يحمل في دماغه فكرة من العمل جديدة ودستوراً للحياة جديداً ، وفي قلبه عاطفة لخدمة الإنسانية ملتهبة ؟

هل هناك هيئة حكومية جديدة تقوم لتمنع الرذائـــل والمفاسد وتقيم في وجهها سدوداً ، وتستمر لخدمة الإنسانية مخلصة لا غرض لها وراء ذلك ولا مطمع ؟! إن الذي نراه ونشاهده كل يوم أنهم جميعاً يحملون فكرة واحدة ومنهجاً للحياة واحداً وعاطفة واحدة — هي الأثرة وانتهاز الفرص — لأجل ذلك لا يحدث أي تغير جوهري في الأوضاع القائمة مهما تغير الرجال وتغيرت الحكومات وتداولت الأحزاب .

www.abulhasanalinadwi.org

أما الأنبياء عليهم السلام فهم يحاربون الرذيلة أينما وُجدت ويحاربون أهلها ، وإن كانوا عشيرتهم وذوي قرباهم ، ويقلبون الأوضاع الفاسدة رأساً على عقب ، ولا يشفع عندهم للرذيلة وبقاءها ولا يبرر وجودها أن القائمين عليها هم أعضاء أسرتهم أو أفراد أمتهم وأن الفائدة ترجع إلى أقاربهم ومن تربطه بهم أواصر الأخوة أو القرابة أو الجنسية ، إنهم لا يرضون بتبدل السادة والمشرفين إنهم يلحون ويجاهدون بكل قواهم لتبديل الرذيلة بالفضيلة، والكفر بالإيمان ، واتباع الهوى باتباع الهدى، والجور بالعدل ، وهم أولياء كل من قبل هداية الله ، وأحب الإنسانية وخدمها بإخلاص ، كائناً من كان ، وبصرف النظر عن الأجناس والأوطان ، والسلالات ، والألوان ، وهم أعداء من نسي الله والدار الآخرة ، وعبد نفسه وشهواته واستعبد الإنسان وسخره لذاته واستخف بالإنسانية سواء كان عربياً أو عجمياً .

إن إنسان القرن العشرين يؤمن بأنه حر مطلق في أهوائه وميوله وإرضاء شهواته ، وهو صديق من يرخي له العنان ويمنحه أعظم مقدار من هذه الحرية والإنطلاق ، ويتيح له أعظم الفرص للتمتع بالشهوات واللذات ، ويفرض عليه أقل مقدار من المسئوليات والتبعات ، وقد عرفت الأحزاب السياسية هذه النزعة وعرفت أنها الزر الكهربائي للوصول إلى القيادة والرئاسة ،

www.abulhasanalinadwi.org

وأنها العصا السحرية لتسخير الجماهير واكتساب الشباب الثائر ، وإغراء الطبقات المختلفة ، تتملق الجمهور وتخطب وده وتساومه بالوعود المعسولة والحريات الممنوحة ، وفرص الإعتداء المتاحة ، وتتسابق فيها وتتبارى كتسابق التجار في المناداة ، وكل منها تقول بصراحة ، بل بوقاحة لو تسلمنا زمام الأمر لقضينا حاجات غرائزكم ومطالب شهواتكم تماماً ، ولهيّئنا لكم سبل المتعة واللذة والرخاء بسخاء ، فإن أردتم قضاء مآربكم الجسدية وحرية الشهوات وإنطلاقها واكتساب الأموال والأرباح ، فرشحونا للإنتخاب ، وصوتوا لمرشحينا نحشد لكم كل وسائل — الترف والبذخ والمتعة والتسلية ، وسموا ذلك في بعض الأحيان « رفع مستوى معيشة الأمم المنحطة » .

وبهذه الرشوة الخلقية أفسدوا أذواق الشعوب كما تفسد عادات الصبيان بإغرائهم بالحلوى ، وهذه ظاهرة لا تقبل الجدال ، إن الأحزاب والحكومات قد خدعت الشعوب عن أنفسها ، وأنزلتها منزلة الأطفال الصغار فهي تغريها بالمتعة الرخيصة والمنافع العاجلة ، وتلهب أهواءها ، وتفسد عاداتها ، ومن طبيعة الإنسان أنه كلما أجيب إلى طلبه ازداد طلباً ، إن الإنسان إذا شاهد قصة غرامية في السينما أو تمثيلية طلب تمثيلية أكثر إثارة للغريزة الجنسية من الأولى ، وأغرق في العري والتبذل ، ولا يزال يتدرج هكذا في طلب المهيجات الجنسية ، والقصص الغرامية ،

www.abulhasanalinadwi.org

حتى تعجز دور التمثيل والواضعون للقصص عن إشباع نهمته ، وهذا سر إسراف دور التمثيل في الروايات الغرامية والجنسية وإسفافها وتبذلها . في أمريكا وأوربا ومصر (للأسف الشديد) وإغراق كتاب القصص في الغرام والأدب المكشوف .

أما الأنبياء وأتباعهم فطريقتهم عكس ذاك ، إنهم يُهذّبون حاجات الغرائز ، ويهدّئون من سورتها ، ويقولون إن تركيز الإنسان جهوده كلها لقضاء ميوله كاملة عمل غير طبيعي ، وإن عادة إشباع الشهوات خطر ونذير سوء على الإنسان ، فلا بد من كبح جماحها، إنها لنظرية خاطئة سخيفة أن تطلق الغرائز كالجمل الهائج، حبله على غاربه ،ثم لا يكتفي بذلك بل تشجع وتغذي ، ولما ظهرت عواقبها الوخيمة وبدت ويلاتها واستشرى الفساد في المجتمع اشتكى منه الاجتماعيون وقاموا وقعدوا من غير جدوى فقد أفلت الزمام وطمّ الوادي على القَرِيّ [1] .

إن أحزاب العالم السياسية لا تقوم على أساس خلقي لأنها تسلم بنظام الحياة القائم، هذا النظام السائد الذي هو أشبه بفرس جموح لا لجام له ، يعدو على غير هدى ويعيث في حقل الإنسانية ويتلف مزارعه ، ويحبط جهود المصلحين وتلك الأحزاب تلهب

---

(١) القري : سيل الماء من الروة الى الروضة .

www.abulhasanalinadwi.org

ظهره بالسياط يستمر يعدو ويدوس ويعيث في الأرض فساداً، فكأن الحياة ليست إلا حلبة سباق الخيول الجامحة الطليقة من اللجم .

إن القيادة العالمية قد ضلّت الطريق ، وما دام هذا الوضع الشاذ فإن السرعة (التي أصبحت إلـه العصر الحاضر) وتوفر الوسائل المادية ، وتقدم العلم والصناعة والعلوم الطبيعية لا يزيد البشرية إلا بعداً عن الغاية وقرباً من الهاوية .

إنه ما لم يتأصل الإيمان بالله واليوم الآخر في النفوس لا يمكن أن يتغير الموقف ولن يحظى العالم بطراز رفيع فريد للإنسانية، إن حاجة المجتمع اليوم هي حاجة إلى تطهير النفوس من حب الجاه والمنصب والمال وتربيتها على الإيثار والتضحية وإنكار الذات ، والتفاني في صالح الجماعة ، ولن يتأتى ذلك إلاّ عن طريق الإيمان العميق المخلص .

إن رسول الله ﷺ قرر أن لا يعطي المنصب من يطلبه ويحرص عليه وكان الزهد في المنصب مرشحاً للإنسان مرجحاً له على أقرانه وزملائه ، أما اليوم فترون عكس ذلك ، فزعماء اليوم يمتدحون أنفسهم ويطرونها بكل وقاحة وجسارة ، ويتحيّلون للوصول إلى المنصب ويستحلون في سبيل ذلك كل

www.abulhasanalinadwi.org

زور و كذب وخديعة ، أمـــا أصحاب محمد ﷺ فكانوا لا يكادون يفكرون في مثل ذلك ولا يخطر لهم على بال ، كان عمر رضي الله تعالى عنه ، يعرض المناصب الخطيرة على أكفاء فيأبون أن يحملوها ويشفقون منها ويعتذرون بضعفهم وعظم المسئولية والأمانة ولا يقبلون إلا بعد إلحاح نزولاً على ما تقتضيه مصلحة الأمة وحرصاً على الخدمة وكان الواحد منهم يستقيل فلا يقال ، وإذا أقيل اطمأن وارتاح .

إن خالد بن الوليد القائد العام لقوات المسلمين — وكان مرهوب الجانب مهاباً عند الأعداء — يتسلم في جبهة المعركة خطاباً عادياً من خليفة المسلمين بالمدينة بإقالته من منصبه وتعيين أبي عبيدة بن الجراح مكانه فلا يحزن ولا يألم كأن لم يحدث شيء ، ويتنازل عن القيادة بكل هدوء ويستمر في أداء مهمته بنشاطه السابق وإخلاصه القديم ، حتى لا يشعر الناس بتغير في القيادة ولا بتغير في موقفه ، أما اليوم فحال الناس كما نعلم ، ولو أن شيئاً مثل ذلك حدث لثار له غبار وعلا دخان ولضاعت المصالح بين تضارب الأهواء .

إن الرغبة في الجاه والحرص على المال والأنانية الطاغية التي قد استحوذت على النـــاس ، وتحكمت في أكثر الشئون ، وسيطرت على العقول والنفوس ، وارتباط الإنسان بمصالحه

www.abulhasanalinadwi.org

الشخصية مؤثراً لنفسه وهواه ... إن استمرار ذلك كله لا يمكن أن تقوم معه للحياة قائمة !

إن حاجيات الحياة قائمتها ليست بطويلة ، بل الكماليات هي التي طالت وتضخمت قائمتها ، وكلٌّ يبني الحياة على أساس هذه الكماليات ، وقرّروا أن غاية الحياة والإستمتاع بلذائذها ؛ جعلوا البطن والنفس ربّاً وإلـٰهاً ، و كفروا بالله وجحدوا سلطانه ، ونظروا إلى الإنسان كأنه حيوان مثقف وسعوا في قضاء شهواته بأقصى ما في الوسع ، هذا هو رأس الفساد وأصل الداء ، وما دام هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح المدنية فستذهب كل جهود الاصلاح هباءً وسدى ، ولن تصلح الإنسانية ولن يصلح المجتمع ولن تصلح قرية واحدة فضلاً عن مدينة أو قطر .

إن أفراد المجموع الإنساني وخلايا المجتمع ناقصة فاسدة ، وقد نشأت على أساس غير سليم ، والجماعات لا تتكون إلا بالأفراد ، فما داموا هم ليسوا بالصالحين الراشدين لا يمكن أن تصلح الجماعة وتنتظم أمورها .

إذا أثير في مجلس موضوع تكوين الأفراد وإعدادهم عبس الناس وتقطبت جباههم ، إنهم يتوهمون أن الأفراد والوحدات يستقيم أمرها بنفسها حين تصلح الجماعة ! إذا قيل لصاحب البناء

www.abulhasanalinadwi.org

إن هذه اللبنات التي تريد أن تبني بها البيت فاسدة واهنة لا تحمل عبء البناء ، وذكرت له عيوبها لبنة لبنة ، قال دعنا من هذا الفضول ، إذا قام البناء وتمت العملية صلحت اللبنات كلها، وإذا قيل لنجار أو صاحب سفينة أن هذه الألواح التي تركب بها السفينة منخورة متآكلة ، وإن السفينة التي تتركب منها لفي خطر وإن الناس الذين يركبونها ويشقون بها البحر لفي خطر ، هزىء وقال أنت وشأنك إننا لا نحمل الناس على هذه الألواح المفردة ، إنما نحملهم على هذه السفينة المركبة والسفينة المركبة غير الألواح المفردة !!

كيف يتصور أن تتكون وحدة طيبة قيمة من خلايا رديئة سقيمة ؟! كيف يُصدق أن اللبنات فاسدة واهية، وتعود صالحة في البناء ، والألواح منخورة متكسرة وتعود سليمة قوية في السفينة ؟!

وكيف يمكن أن تشكل من أعضاء غير صالحين جماعة صالحة ؟! كيف يعقل أن تنتج من ألواح منخورة سفينة جيدة، إننا سمعنا النتيجة تابعة دائماً للمقدمات والمبادىء ، وأن المجموع يحمل أوصاف الأفراد والأجزاء ، إن الأجزاء فاسدة والمواد سقيمة فكيف يمكن أن يكوّن بها هيكل صحيح ، كيف يعقل أن يشكل من مثل هؤلاء الأفراد الخائنين إدارة سليمة

www.abulhasanalinadwi.org

نزيهة أو حكومة صالحة مثالية؟ كيف يعقل أن يكون كل فرد في مجموع لصاً سارقاً وخباً لئيماً [1] ، فاذا اجتمع بعضهم مع بعض كانوا جماعة صالحة أمينة كريمة ! إن الظاهر المشاهد أن السرقة والخيانة إذا اجتمع بعضها مع بعض كانت سرقة كبرى وخيانة عظمى ، وإن اللصوص إذا اجتمعوا واتحدوا كانت عصابة من اللصوص أشد خطراً وأعظم جريمة من الأفراد، لماذا تنسون يا جماعة هذه المشاهدات والبديهيات في شأن الهيئات والدول، وتتوقعون من هيئة أو دولة تشكلت من أفراد لا يخافون الله ، ولا يستحيون من الناس ولا يعفّون عن المحارم ولا يتنزهون عن الجرائم أن تتحول هيئة نظيفة أمينة أو دولة عادلة رحيمة ؟! إنني لا أومن بمثل هذه المعجزات !

إن العالم كله مبتلي بهذه المغالطة اليوم ، لا ينظر أحد إلى المادة التي اتخذها واعتمد عليها ، ويرى الإنتاج الرديء فيحزن ويتألم ، أليس ذلك حُمقاً وبلاهة ؟!

أما الأنبياء والرسل ، صلوات الله عليهم ، فإنهم لا يعيشون في الظلام والأوهام ، ولا يخدعون ولا ينخدعون ، إنهم يحسنون صنع الألواح ويجيدون إعداد الوحدات ، ويتقنون تجهيز اللبنات

---

(١) الخب : الخداع .

www.abulhasanalinadwi.org

التي يقوم عليها صرح الإنسانية فتقوم بنايتُهم محكمة البنيان ، قويمة الأضلاع ، صالحة المواد ، لا يخاف عليها من إنهيار .

هذه الحقيقة الضخمة في رسالة الأنبياء يجافيها واقع الحياة اليوم حتى في المعاهد والجامعات،فلا تجدون مؤسسة تقوم لتربية الناس على الإيمان الصادق والخلق الفاضل ، وليست هنالك أية عناية بتربية الفرد ، فتخرج مجموعات الأفراد الإنسانية فاقدة التربية والتوجيه،إن التلميذ اليوم يقترف كل ما يشاء من جريمة، لأنه لم ينشأ نشأة خلقية ، إنه لا نسبة بين معلوماته ومعارفه وبين أخلاقه ، وهؤلاء هم الذين يدخلون الوظائف الخطيرة ويشكلون الحكومات والوزارات ، ويسيطرون على الأنظمة السياسية ويملكون زمام الحياة .

إن الحقيقة لتنجلي لا محالة ولو موّه المموّهون ، ربما سمعتم أن حماراً تقمّص جلد أسد فاستأسد ، ولكن حينما صادف الخطر لم يثبت وما لبث أن فضح نفسه بنهيقه ، هذه قصة الحياة، إن ما كمن في الداخل يبدو في الخارج و « إن التخلّق يأتي دونه الخلق » كما قال العرب .

إن المصلحين كثير ولكن لا يفكر أحد أن يبدأ بعمله من الأسفل ومن الأساس ، أما السياسيون فقصارى جهدهم أن

www.abulhasanalinadwi.org

يظفر حزبهم بالحكم والسلطان، كائناً من كان ، وينسون أو يتناسون أن المهمة الأولى لكل من يحاول الإصلاح أو يريد أن يخدم الإنسانية أن يوجد احترام الإنسانية في بني الإنسان ويبعث تقوى الله في عباد الله .

كثير من الناس يعتقدون في الغرب أن العالم دكان سلع ليس إلاّ، فكل واحد يعامل الآخر كأنه زبون فيريد أن يربح منه أعظم ربح ، لقد طغت هذه النزعة التجارية على الحياة كلها .

وإن عامة الموجهين العاملين في الشرق والغرب ، لا يصل تفكيرهم إلاّ إلى التثقيف والتعليم، ومنهم من يهدف إلى المشاريع الإقتصادية أو النظم السياسية ، وما بقاء المشاريع الإقتصادية أو النظم السياسية وما قيمتها في شعب لا يدين بمبادىء الإنسانية الأولية ولا يحترمها ؟!

نحن أصحاب الدعوة الاسلامية نقدم رسالتنا إلى كل حزب وهيئة وإلى الشرق والغرب فرسالتنا رسالة الأنبياء، وهي رسالة الإنسانية في كل عصر ومصر ، ونحن واثقون بأن البشرية اليوم أحوج إلى هذه الرسالة من رسالة الأحزاب والهيآت ومن جميع النظم والفلسفات، وإن وجودنا — كحملة هذه الرسالة وأصحاب هذه الدعوة — من أعظم حاجات هذا العصر لأن هذه الدعوة النبوية هي التي تعصم الإنسانية من الأخطار وتتقدم بها إلى السعادة والفلاح ؛ وإلى مثل الإنسانية الكامل .

www.abulhasanalinadwi.org

إننا إذا نجحنا في مهمتنا فسيسعد العالم بطاقة من الإنسانية فواحة عبقة تعطر الجو وتنعش النفوس ، إن ساحة الإنسانية اليوم لا ينبت فيها إلاّ الأشواك ، والإنسان أصبح أندر من الكبريت الأحمر ، وإن دوحتها لائوتي من أكلها اليوم إلا كل فج نيىء وحامض ومرّ ، فليتقدم العاملون للإسلام وليتعهدوها بالعناية والسقي حتى تؤتي أكلها يانعاً شهياً ، إن مهمة هؤلاء العاملين أن يبعثوا في الناس شعور التمرد على هذه الحياة الفارغة الهازلة الزائفة ، وشعور الحسرة على ما فقدوه من قيم رفيعة ، حتى ينبعثوا مطالبين بالإنسانية الضائعة المفقودة والحياة الكاملة المنشودة .

إن المسلمين في هذا العصر – والحق يقال – ما قدّروا وظيفة الرسل ورسالتهم ولم يحسنوا القيام بها ، وإنهم لجناة مقصرون ، كان الواجب عليهم أن يتحدوا أوضاع هذا العصر العابثة ويقاوموا مثله الناقصة ومكاييله الزائفة ، ويقودوا الثورة على المادية والأنانية والعبث بحرمات الله وكرامة الإنسان ، إنهم فقدوا مكانتهم كدعاة ، ولهوا عن رسالتهم وأمانة الله في أعناقهم ، وأصبحوا يعيشون على هامش الحياة ويسيرون في ذيل القافلة ومؤخر الركب ، ولو عاشوا برسالتهم ولرسالتهم لعاشوا مكرمين منعمين ، ولم يكن مصير الإنسانية كما نراه اليوم .

www.abulhasanalinadwi.org

قصة الأمم الراقية مع رسالات الأنبياء (١)

من القصص الهندية أن أميراً من أهل البيوتات والشرف ورد نهراً ليغتسل فأشرف على الهلاك، فبصُر به رجل من أراذل الناس فأسرع إليه وأخذه إلى شاطىء النجاة فلما أفاق الأمير وتماسك سأل عن اسم منجده وحاله فإذا هو رجل وضيع النسب فاستشاط غضباً وعدّ صنيعه جريمة حيث دنّس جسده الطاهر بيده ، وأمر بالمسكين الكريم فعذّب وأوسع صفعاً وضرباً وصار نكالاً للناس جميعاً .

لم تنته القصة بعد بل اتفق للأمير مرة ثانية ان دخل النهر

---

(١) مقال للمؤلف نشر في اللغة الاردوية والانجليزية والهندية نقله الى العربية الاستاذ عبدالله عباس الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

ووقع له نفس الحادث وحاول النجاة فلم يفلح، أمّا المذنب الأول فكان منه على كثب وكان ميسوراً له إنجاد الأمير ولكنه لم يجترىء أن يكرّر جريمته الأولى بعد الذي ذاقه من العقاب الأليم ، وعبثت الأمواج بالأمير المتعالي ولم تحفـــل بكرامته ونسبه ، وذهب ضحية كبريائه وسفاهته .

هذه أسطورة لعلها سبقت إلى مسامعك فاستغربت وقوع مثلها في العالم ، وأنكرت صدورها من رجل رزق شيئاً من العقل ، ولكن الفكر الإنساني له أطوار وعجائب ، قد روى لنا التاريخ شيئاً كثيراً من هذه المضحكات المبكيات ، فطالما أغرقت العصبية الجنسية والخيلاء آلافاً من البيوتات ومئات من الجماعات فقدت رشدها في سبيل هذه العصبية والكبر حتى آثرت الهلاك على النجاة ، واختارت الغي على الرشد ، وأبت أن تتبع رجلًا لا ذنب له إلاّ أنه وُلد في جنس آخر أو وطن آخر، أو في بيت فقير، أو شعب حقير واستنكفت من أن تتخذه قائداً ومرشداً.

وتقرأ لهذه القصة الطريفة نظائر وأمثلة كثيرة في تاريخ الأديان والأخلاق ، والعالم الحديث وإن كان ذا عقلية واسعة وفكر عالمي لا يزال يتحفنا بحكايات ونوادر لا تقل عن أسطورة الأمير طرافة وغرابة ، فقصة الأمير المتكبر الغريق التي تراها من القصص الخرافية المختلفة إنمـــا هي حكاية صادقة عن بعض

www.abulhasanalinadwi.org

عجائب الإنسان وتمثيل صحيح لناحية من نواحي الطبيعة البشرية .

هل أتاك حديث يونان ؟ أرض الشعراء والأدباء ، وأرض الفلاسفة والحكماء ، ومن يجهل أفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وسقراط ؟ أرض قد يظن الرجل أنها لم تنجب غير الشعراء والفلاسفة والأطباء، ولم يكن فيها إلاّ شاعر أو أديب، أمة موهوبة وأرض مخصبة، كانت فيها الحكمة والفلسفة. فكان فيها الأقليدس والهندسة ، وكان فيها الشعر والأدب والتصوير والنحت ، وسائر الفنون الجميلة ، أرض كانت مادّة لا تنقطع لكل ما أبدعه الذوق الإنساني وأوجدته القرائح البشرية، فكان اليونانيون أساتذة العالم ، ولا تزال البلاد والأمم تزهى بتقليدهم حتى اليوم .

كان هذا وذاك ، ولكن هناك أموراً لا تحيط بها العقول البشرية ولا يتناولها العلم الإنساني ، ولا ينفع فيها الذكاء وحدّة الذهن ، وهي : ما سرّ هذه الدنيا ؟ وكيف أوجدت ومن أبدعها ؟ وماذا أراد بخلقها ، ثم ما مصيرها وغايتها ؟ وما هي الشريعة المرضية للحياة لدى خالقها ؟ وهل من حياة بعد هذه الحياة ؟ وان كان لا بد من الحياة الآخرة . فما هي واجبات الإنسان نحوها وكيف يتزوّد بها ويتّعد لها عدتها؟ وما هو الطيب

www.abulhasanalinadwi.org

والخبيث والحلال والحرام ؟ هذه أسئلة يعجز الإنسان عن حلها الصحيح بالحرص والظن فلا القياس يجديه نفعاً ولا الظن يغني عن الحق شيئاً .

حاول اليونان كعادتهم أن يمرّوا بهذه الأسئلة مرور الشعراء والأدباء ، وكان مجال الشعر في هذا الوادي ضيّقاً غير فسيح وما كان الشعر يوماً من الأيام فارس هذا الميدان ، وصاحب الكلمة في هذا الشأن ، حتى تعثر اليونان في كل خطوة خطوها، نسبوا إلى الله عز وجل أموراً يستنكف منها الحر الكريم ، واختلقوا طوماراً وهمياً في نسب العقول والأفلاك اختلاقاً مضحكاً وربطوا به العالم وأفرغوا أساطير الأصنام الخرافية (Mythology) في قالب الفلسفة ، وكسوا قصص الأصنام والآلهة الموضوعة لباساً دينياً علمياً ، حتى قتلت هذه الخرافات في اليونانيين روحهم الدينية وبقيت اليونان ميتة بين الأموات ، جوفاء لا روح فيها ولا حياة ، أقفرت القلوب من خشية الله والأفئدة من حبه و أثرت القصص الغرامية الموضوعة للآلهة والإلآهات وأخبار معاشقتها ومغازلتها وعلاقاتها السرية في الآداب اليونانية والمجتمع اليوناني تأثيراً سيئاً فأثارت الشهوات الجنسية وأفسدت الحياة المنزلية حتى لم يبق هناك ميزان للخير والشر ، وقامت الفلسفة تدافع عن كل إثم وتحتج لكل شر ، ونهض أقطاب الفلسفة والحكمة يبررون البغاء و يدافعون عن

www.abulhasanalinadwi.org

المومسات وحرفتهن، إلى أن أصيبت هذه الأمة الذكية بانحطاط خلقي هائل ، وفوضى في الإجتماع والمعاشرة وانحلال خلقي واجتماعي لا بقاء لأمة عليه ، وسال هذا السيل الجارف بكل علم وأدب ، وذهب بكل خيرات اليونان وحاصلاتها الممتازة بين البلدان .

وكانت وراء الشرق الجنوبي من اليونان بلاد وأمم دون اليونانيين عقلاً وعلماً، فليس فيها حكماء مثل سقراط وأفلاطون، ولا شعراء مثل هوميروس وعسقليوس ، ولا رجال الهندسة والرياضة مثل أقليدس وفيثاغورث ، ولم تكن لها يد طولى في الفنون الجميلة إلاّ أن الله سبحانه اختار فيها رجاله بالنبوة والرسالة وأوحى إليهم دينه وأفاض عليهم علوم ذاته وصفاته ومنحهم في سر هذه الحياة ومصير هذا العالم علماً محكماً لا يتطرف إليه الشك، ووهبهم دعائم دينية يقوم عليها بناء الأخلاق والاجتماع والمدنية الصالحة في كل عصر .

لقد كان اليونان يملكون ثروة عظيمة من الكلمات الحكيمة والمصطلحات العلمية والبحوث الفلسفية ، ولكن الأنبياء كانوا يعرفون حقائق الأشياء وجوهرها ولبّها ، وكان في يد اليونانيين ألغاز معقدة عن الكون والإجتماع والأخلاق كلما حاولوا حلها زادت تعقداً والتواءاً ، أما أولئك فكان في أيديهم المباركة

www.abulhasanalinadwi.org

طرف كل حبل ومفتاح كل فضل .

كان فلاسفة اليونان يتلاعبون بأصداف من بحر الحقيقة المائج ويعبثون بالخزف والحصاة ، أما هؤلاء فقد خاضوا ذلك البحر العظيم ونزلوا في أعماقه فأخرجوا درره النفيسة الغالية ، وكان الاغريق يعلمون كل شيء ويجهلون أنفسهم ، وقد دوّنوا تاريخ العالم بأسره ، فما من بقعة من بقاع الأرض إلا أحاط بهـــا اليونان علماً وخبراً ، ولكنهم لم يطلعوا على مدبّر العالم الوحيد ، وأفلسوا في الروح والأخـلاق إفلاساً شائناً ، وعجزت علومهم وفلسفة الأخلاق أن تنفخ في رجل واحد روح الطهارة وخشية الله ، وأُشرب الناس في قلوبهم حب الشهوات وتهافتوا على اللذات ورتعوا في المحرمات ، وأطلقوا عنانهم في الفحشاء والمنكر .

أما الأنبياء فكل من اتصل بهم أوهبّت عليه نفحة من نفحاتهم ، خرج من أسر الهوى وتحرر من رقّ الشهوات وخملت فيه جذوة الإثم ، وتولدت فيه الدواعي القوية للتقوى والطهارة وبلغ من معرفة الله ومحبته ومن اليقين درجة لم يبلغها حكماء اليونان وفلاسفتهم .

إن فلاسفة اليونان عجزوا عن أن يربوّا تلاميذهم النجباء على الزهد والتقوى ومقاومة النفس والهوى ، وذلك أن علومهم قسطاً

www.abulhasanalinadwi.org

وافراً من العلوم والآداب وخرّجوهم في فنون الفلسفة والاخلاق.
أما الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فكانوا يرفعون الأنفس الوضيعة من حضيض الحيوانية إلى أوج الإنسانية بغير واسطة الكتب وأدوات التعليم، ثم يُعدونهم لمغالبة الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، فكانوا أزهد في الدنيا وأحرص على البر وأخوف لله، وأملك للنفس من كبار الحكماء والفلاسفة، كانوا أعمق الناس علماً وأبرّهم قلوباً وأقلهم تكلفاً.

بلغت دعوة هؤلاء الرسل إلى اليونان وقرعت الآذان فما كان منهم إلا أن أنغضوا رؤوسهم في سخرية واستهزاء، وأجابوا في احتقار وازدراء: أبعد هذه العلوم الواسعة والمكتبة الزاخرة والاكتشافات المدهشة في كل علم وفن نقتدي بأميين لا يحسنون الكتابة والقراءة ولا يعرفون مبادىء العلوم؟ هذا والعالم كله متطفل على مائدة علومنا؛ ومُغترف من بحر فضلنا وفلسفتنا، ويطرب لأدبنا وشعرنا، ويتفاخر بتقليدنا، وأي علم نجهله حتى نحتاج إلى أن نراجع فيه غيرنا؟! فكان عاقبة هذا الكبرياء أنهم استغنوا عن هداية الرسل وضيّعوا فرصة الانتفاع بالعلوم التي لا توجد عند غيرهم، ولا تصلح الحياة إلا بها، وأصبحت علومهم التي كانت مجردة عن هداية الرسل ومعرفة الله تعالى منبع الفساد والعلة في جسم حياتهم تنفث السم وتفسد الدم وتعميهم عن الحقائق وتشغلهم بالفضول حتى أصبحوا فريسة الأدراء الخلقية

www.abulhasanalinadwi.org

والشرور الإجتماعية والتنافر الجنسي والاضطراب المنزلي ، وأصبحوا حديثاً في التاريخ وقصة من القصص الماضية ، وكانوا كما وصف الله تعالى في القرآن « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون » .

وقد تمثلت هذه الرواية في رومة بعينها ، رومة التي ورثت عن اليونان نتاج علومها وسياستها إلى أن فاقت صاحبتها في النظام السياسي والتشريع ، وفن الحرب ، وقد قبضت رومة في براثنها الحديدية على ناصية القارات الثلاث : أوروبا وآسيا وأفريقيا ، استولت عليها كأسرة واحدة ، وأجادت في إدارة المملكة وكثرة الفتوح والمستعمرات ، ولباقة التشريع وحماية الفنون الجميلة فى النقش والنحت ، وفن البناء والعمارة ، لقد فاقت رومة في كل ذلك على أخواتها وبرزت ، ولكنها بقيت جاهلة لسر الحياة ، ولم تتمكن من أن تستقي من معين الحقيقة الصافي ، وكانت تدين بعبادة الأصنام والأجرام ، وقد فقدت المعايير الصحيحة وخسرت قيم الأخلاق وموازينهـــا السليمة ، وظلت بعيدة عن الهداية الكاملة المعصومة ، فكان عاقبة ذلك أنها أُصيبت بأمراض خلقية روحانية عسيرة ، كتبذير الأموال والغلو في الترف والبذخ ، والجشع المادي والتهافت على الأموال واللذات ، وازدياد الضرائب والإتاوات ، فعاد كل ذلك وبالاً على رومة وعذاباً أليماً ، وفسدت الأذواق ومسخت الأذهان

www.abulhasanalinadwi.org

حتى بلغ أهل رومة في القسوة والاستهانة بالنفوس البشرية مبلغ السباع والمجانين، حتى كثر التفرج على المبارزة بالسيف (Gladiator) بين القرنين، وكان أهل رومة يتزاحمون لشهودها، وأحب المناظر إليها احتضار القتلى وأنين الجرحى، وكانت ولائم الأمراء وحفلات الأغنياء تضاء بإحراق العبيد أحياء[1]، هذا ولم نر في رومة حكيماً ينتقد هذه العادات الهمجية أو عالماً يذم هذه القسوة السبعية .

وفي ذلك العصر عصر الانحطاط والتدهور في الأخلاق والمعاشرة، بُعث في الأمم الشرقية غير واحد من الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فوصلت أخبارهم ودعوتهم إلى رومة ، ولكن أنفت رومة — وهي سيدة العالم — من أن تصغي إلى رجال وُلدوا في أمم منحطة وفي بلاد تحت حكمها ، واستهان أهلها بدعوتهم ، وكيف تلقي رومة بالاً إلى رجال لا سيادة لهم ولا سلطان وهي صاحبة الأمر والنهي في بلادهم ؟ فكأنها قالت بلسان الحال « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » ولم تزل حجة المنكرين من الاغنياء والمترفين من قديم الزمان « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » ، ما قدرت رومة نعمة النبوة حق

---

(١) History of the European morals by Lecky

www.abulhasanalinadwi.org

قدرها ، فأغرقتها العصبية القومية و كبرياء الملوكية ، وأخذتها موجة طاغية من الفساد والانحلال والفوضى ، ومُحيت من الوجود ، « وذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينـــات فقالوا أبشر يهدوننا؟فكفروا وتولّوا واستغنى الله، والله غني حميد. »

كانت رومـة وإيران والصين والهند في القرن السادس المسيحي من البلاد المتمدنة في العالم ، ولكن كل غصن مـــن أغصان الديانات أصبح ذاوياً لايثمر ولا يورق وكل مشعل أشعلته النبوة في زمانها قد نفد زيته وانقطعت مادته ، أفلست الأمم والأديان في اليقين ومعرفة الله الصحيحة ، وكان التخمين والحرص بضاعة المتدينين ، ومطية العلم والدين ، وكانت أهواء الأنفس روح السياسة والإجتماع،وكان الدين والملوكية كفرسي رهان ورضيعي لبان في الخُدعة والمكر،تخلت الصوامع والبيع والكنائس عن القيادة الرشيدة ، وتنازلت منذ أمد بعيد عن إرشاد الناس ، ولنظرة عجلى في الهندوكية البوذية والمجوسية والمسيحية تدل على أن هذه الديانات قد فقدت نضارتها وانطفأت مصابيحها،فلا تكاد تضيء ولو مستها نار،ولم تعد توقظ الروح ولا تنعش الضمير ولا تبعث خشية الله والشعور بالواجب، ولا تحمل الأحكام الواضحة والأوامر البينة التي فصّلت من لدن حكيم خبير.

أنهكت الدولة الفارسية الرومية الفلاحين والصناع والتجار

www.abulhasanalinadwi.org

بالضرائب المتنوعة والأتاوات المبتدعة المستحدثة التي أصبحت لهم الشغل الشاغل والهمّ الوحيد في الحياة حتى ذهلوا عن التماس حقيقة سامية أو السعي للآخرة ، وكان مثلهم كمثل الثيران ، نهارها تعب وليلها نوم ، وحياتها شقاء للغير ، وحظّها علف وماء ، وذلك أيضاً كي تقوى على الخدمة وتقضي حاجة أصحابها .

أما الهند فقد بلغ فيها التفاوت بين الطبقات والأنساب والحرف مبلغ التفاوت بين البشر والحمير والبقر ، بل نزل المنبوذون فيها منزل الكلاب والخنازير ، ولطخت الشهوة الجنسية والروايات الغرامية المعابد والذخائر الأدبية والدينية وتغلغلت عبادة القوة والمال في أحشاء الأمة وبقي الدين رسماً بالياً وإسماً لبعض الطقوس الدينية والتقاليد الاجتماعية أو مجموعة لمصطلحات الفلسفة والبحوث الفارغة .

وبالجملة إن الأمم المتمدنة قد أصبحت فريسة المدنية الممسوخة والأرداء الخلقية والاجتماعية الفاتكة ، حتى صارت لا تجدر بحمل الرسالة المقدسة والجهاد في سبيلها ، وإغاثة الإنسانية الملهوفة ، بل استحالت هي وكراً من أوكار الفساد وأعظم علة من علل شقاء الإنسانية .

نظرت الحكمة الالهية إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم ،

www.abulhasanalinadwi.org

فاصطفت لنشأة العالم الثانية الأمة العربية ولم تكن دون الأمم الوثنية الأخرى في عبادة الأصنام وانحطاط الأخلاق ، غير أنها لم تلحقها عدوى المدنية المصطنعة والحضارة المزورة والرذائل التي تأتي بها الحكومات وتحملها العبودية السياسية والروحية ، ثم اجتبى الله منها فرداً كان نسيج وحده في طيب عنصره وذكاء فطرته وعلوّ همته وقوة جأشه وصدق عزيمته ، وعفاف نفسه وعزوفه عن الشهوات ، وكان آية من الشجاعة والثبات ، بحيث لو عارضه الجن والبشر وعاداه البر والبحر لما ضعف ولا استكان ، ولو وضعت على يمينه الشمس وعلى يساره القمر لما تحيّر ولا تخيّر ، ولو راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه لعصى وأبى ، ولو عرضت عليه الرئاسة والملك وكنوز الأرض ومفاتيح الخزائن لرفضها من غير تأنٍّ ، فلم يكن أحد أجدر منه لحمل الرسالة ولا أقوى عليها في مثل تلك الساعة العصيبة ، وفي أشد يوم من أيام الحرج ، ولم يكن من النوع الإنساني فرد يوزن بالعالم كله فيرجح عليه ، ويتألب عليه جنود الشيطان وقوى الشر فينتصر عليها ، ويشق طريقه في عقبات وأشواك حتى يصل إلى نجاح لم يتهيأ لأحد قبله ولا بعده ، فيبدأ المهمة وهو وحيد لا صاحب له ، وينتقل إلى ربه وقد غيّر مجرى التاريخ وخلّف وراءه أمة فاضلة عادلة قوية متناسقة كأنها حلقة مفرغة لا يدري أين طرفها وذلك كله في ثلاث وعشرين سنة !

www.abulhasanalinadwi.org

وكانت العقلية الإنسانيـة قد نضجت وأدركت فاستحقت الرسالة العامة والنبوة للإنسانية كلها ، وقد بلغ النوع الإنساني سن الرشد فاستحق الرسالة الأخيرة والنبوة التي لا نبوة بعدها ، فمنح الله محمداً ﷺ ديناً مبيناً محكماً مفصلاً كاملاً يسع جميع شعوب العالم وجميع طبقاتها وكل أفرادها ، وجميع شئون حياتهم ، يغذي العقل وينير الفكر ويوقظ الروح ؛ ويربي المواهب الفطرية ، وكان عبادة وشريعة ، وخلقاً واجتماعاً وسياسة ، وكان حياة كاملة محيطة بكل ما يحتاج إليه الإنسان من العقائد والإلـهيات وإلى ما يتجدد من شئون المجتمع والمدنيـــة في كل زمان ومكان ، محكماً لا عوج فيه ، عروة وثقى لا انفصام لها ، فلا يقبل النسخ والتبديل ولا يحتاج معه إنسان إلى انتزاع أو ابتداع .

وكان هذا الدين ثروة ليشترك فيها بنو آدم ، وكانت قسمة كل شعب وفرد ، قسمة غير ضيزى ، ومجالاً فسيحاً لطيران كل فرد وعروجه على السواء ، فلم يكن فيه سلطان أسرة خاصة ونسل معين (كلـكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى) « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنرى في العصر الأول سلمان من إيران وصهيباً من الروم

www.abulhasanalinadwi.org

وبلالاً من الحبش وكثيراً من بني جلدتهم يشاركون قريشاً وأشراف بني هاشم في كل فضل وخير ، ويفضلون كثيراً منهم بالعلم ، ونسمع عمر رضي الله عنه خليفة المسلمين يلقب بلالاً بالسيد ، ثم نرى في حواضر المملكة الإسلامية ومراكزها الكبرى غير واحد من حديثي الإسلام العجم يسودون المسلمين الذين ورثوا الدين عن آباءهم، ويسودون السادة العرب، ونرى الملوك والأمراء يخضعون لفتاويهم وأقضيتهم ، وكان رئيس المسلمين الديني وكبيرهم في كل مدينة كبيرة أيام عبد الملك رجلًا من الموالي إلا الكوفة ، وكان ينادى في موسم الحج الذي يقصده المسلمون من كل فج عميق – في مثل مكة المركز العربي الكبير – « ألا لا يفت الناس إلا عطاء بن أبي رباح » وكان مولى من الموالي .

مكث الفرس والرومان مدة من الزمان ينظرون إلى الإسلام كعدو بغيض وإلى المسلمين كمغتصبين ، وأصابتهم دهشة الفتح ، وسرعان ما تبدلت فكرتهم ونظرتهم ، وفتحوا للإسلام أبواب صدورهم المقفلة وعقولهم المعطلة فأصابوا من مائدته البسيطة الممتدة على كل ناحية من نواحي الأرض فضربوا في حسنات الإسلام بسهم وافر، وفاقوا كثيراً من العرب في العلوم الدينية والفضائل الإسلامية فكان فيهم مثل ابي حنيفة ومحمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وأبي داوود السجستاني وأبي

www.abulhasanalinadwi.org

عيسى الترمذي إلى إمام الحرمين الجويني وحجة الإسلام الغزالي الطوسي وكثير من النوابغ والعبقريين المسلمين الذين ينحدرون من أصول عجمية وملوك مجاهدين صالحين كنور الدين الزنجي وصلاح الدين الكردي وملك شاه السلجوقي وشمس الدين ألتمش سلطان الهند ، وناصر الدين محمود وغيـــاث الدين بلبن ومحمود شاه الكجراتي ومظفر الحليم ومحمود كاوان الدكني وأورنك زيب التيموري الذين لا يزالون جميعاً موضع الاعجاب من المؤرخين، وظهر في التاريخ الإسلامي أسر حديثة العهد بالإسلام ، تحكم المسلمين كسلاجقة نيسابور وزنج الشام وأكراد مصر وآل عثمان في تركيا وأسرة المملوكين في الهند ومماليك مصر، وهكذا جمع الإسلام للعجم بين السيادة العلمية والروحية والسيادة السياسية ، وذلـك أقصى ما وصلت إليه أمة في دين جديد .

وقد حلت رحمة الإسلام ببلاد أوروبا عن طريق الأندلس وتألق الإسلام نجماً في سماءها ثمانية قرون ، ولم يكن عرب الأندلس مثلاً كاملاً في روح الدين وتمثيـل الإسلام والأخـلاق الإسلامية ، ولا شك أنهم لم يكونوا كأصحاب النبي ﷺ في الأخلاق والحماسة للدعوة الإسلامية والتأثير في أخلاق الأمم وعقولها، ولكنهم كانوا—على علاتهم— أفضل حداً من الأوربيين، في الدين والأخلاق والعلم والعقل ، عندهم كتاب منزل ودين محكم وشريعة مدونة، ومنحت أوروبا فرصة طويلة للتدبر في ذلك

www.abulhasanalinadwi.org

الدين ، والنظر في كتابه المبين وفهم شريعته السمحاء .

ولكن أوروبا لم تهتبل هذه الفرصة السعيدة ولم تنتفع بها فأهلكتها الصليبية والكبر الاقليمي ، الذي لا يزال شعارها حتى اليوم ، وهذا ما ورثته عن اليونان المتكبرة وروما المتغطرسة ، فلم تزل تنظر إلى مسلمي الأندلس نظراً شزراً ، نظر العداوة والبغضاء ؛ والحسد والشحناء ، وقد استفادت من مهارتهم في الطب ونبوغهم في الفلسفة كلما اضطرت إلى ذلك ، ولكنها لم تنتفع بملاك أمرهم ورأس مالهم وجوهرتهم الغالية وهو (الإسلام) حتى جُن جنونهـــا في القرن الخامس عشر المسيحي ، فأجلت مسلمي الأندلس من أرضها إلى أفريقيا وتمادت في وجهها وطغيانها إلى أن طمست آثارهم الدينية والثقافية التي كانت ذخيرة ثمينة لأوروبا ايضاً ، وأجلت الاسلام من تلك البلاد فأجلت بجلائه رحمة سماوية أظلتهم ثمانية قرون .

فكان عاقبـــة هذا أن نهضة أوروبا العلمية والعقليه (Renaissance) تأخرت لعدة قرون ، وجاءت نهضة خرقاء غطف هوجاء ، إذ كانت على غير هدى وعلى غير أساس ديني خلقي ، فوقعت أوروبا ومن تبعها من أمم العالم في هوة اللادينية وعبودية المادة ، إذ لم يكن في أوروبا بعد جلاء المسلمين منها من يرشدهم إلى الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة التي هي أساس

www.abulhasanalinadwi.org

المدنية والمجتمع ، ولم يكن فيها بعد المسلمين من يساعدهم في في الجمع بين الدين والعقل وسعادة الدنيا والآخرة ، أما الديانة التي تدعو اليها الكنيسةالنصرانية فكانت أوهاماً وعصبية ومجموع تأويلات الأحبار والرهبان وتفسيراتهم الغامضة المعقـــدة ، والأقوال المتضاربـة المضطربة والجغرافية المسيحية المقدسة ، والتاريخ المقدس الذي لا يؤيده العلم ولا يوافـق عليه العقل ، وكل ذلك مما يبغض إليها الدين ورجاله ، اما الأمور التي هي دعامة العلم الصحيح والعمل النافع كمعرفة الخالق ، وصفاتـــه والوحي والنبوة والحياة والآخرة فلا قبل لأوروبا بمعرفتها ولا سبيل لها الى الوصول اليها، فكانت لذلك عاجزة عن تعيين غاية الحياة وموقف الانسان من هـذه الحياة والكون ومركزه في العالم .

فكانت النتيجة الأولى ان أوروبا ركبت عمياء في سفرها وخبطت خبط عشواء في حياتها شغلها البحث في الآفاق وعـلم الـكائنات عن خالق الارض والسموات فلم تصل من الخلق إلى الخالق ، ومن الكثرة الى الوحدة ، وتكدست عندها المعلومات والاكتشافات ولم تستطع أن تسلكها في سلك ، ولم توفق أن تنفخ فيها روح الحياة وتهتدي الى مراكزها وتستعملها في صالح الانسانية وسعادتها .

والنتيجة الثانية أنها لما حرمت الدين وروحه ، حرمتالضمير

www.abulhasanalinadwi.org

الحي والقلب الحساس والشعور الرقيق وتهذيب النفس والتغلب على الشهوات ، فلم تزل في رقي وعلو في العلوم وتظفر بفتح بعد فتح في الدائرة الطبيعيّة، ولكنها لم تزل في انحطاط وسقوط في الروح والأخلاق، حتى انتهت في سفرها إلى منزل جمعت فيه بين ذكاء الحكماء والفلاسفة ومقدرة الجن والعفاريت ، أما الأخلاق والأعمال فتنازلت إلى طباع الأطفال وميول الشيطان ، إمتلكت القوى والوسائل التي سخرت الهواء والماء والبرق والبخار والحرارة والقوة ولكنها ظلت محرومة عن المقاصد الصحيحة وميول الخير التي لا تحصل إلا بفضل الدين الصحيح والتربية الخلقية، فأصبحت هذه الوسائل إما ضائعة في مقاصد حقيرة لا تنفـــع الإنسانية شيئاً وإمـا مخرّبة تستعمل في دمار الانسان وتخريب الحضارة نفسها ، وقـد تسلّط شيطان الأثرة على أوروبا بأسرها ، فأمم تفتك بالأمم وطبقات تغزو الطبقات وأفراد ينحرون الأفراد ، ولم تقف عند هذا الحد بل وصلت في الأخير الى القـوة الذرية التي تأتي على الحرث والنسل، وتجعل البلاد الواسعة قاعا صفصفاً ، أضاعت أوروبا مواهبها وثمرات عقولها وعلومها بإعراضها عـن هداية الدين فعادت كلهـا وبالاً عليها وعلى العالم ، ولا شك أنها تملك مادة واسعة من العلوم وتفاصيلها التي ربما لا تحتاج إليها ، ولكنها تجهل الأصول والمبادىء للحياة الإنسانيـة وتعرض عن العمل بها ، ولا ريب أنها حلّت ألغازاً عديدة معقـدة شديدة التعقيد ، ولكنها عجزت عن حـل اللغز الأكبر لغز حياتها ،

www.abulhasanalinadwi.org

فكانت كما قال الدكتور محمد اقبال في بعض قصائده يشير الى بعض غرائب الغرب :

« من الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليـــله وكيف يصبح ، وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره، ومن عكف عن على الألغاز يحلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر ».

ولا سبيل لأوروبا الآن إلا أن تتشجع وتعترف بأنها أفلست إفلاساً شائناً في الاخلاق والروح ، وأخفقت في الحياة إخفاقاً تاماً، وتستغيث لنجدتها الدين الإسلامي والهداية المحمدية، الهداية التي تمنحها غاية الوجود الصحيحة وتنفخ فيها روح الحياة وترشدها الى خالق الكون ومدبره ، وتمنحها في ذلك علماً واضحاً غير ملتبس فتجمع لها بين الحب والخوف وطالما حيل بينهما ، وبين حياة القلب ونور العقل، وطالما فرق بينهما ، فلم يكن الأول إلا على حساب الثاني، وتبعث فيها الإيمان بحياة بعد هذه الحياة، إيماناً يحول بينها وبين الجنايات والخيانات الفردية والاجتماعية والخلقية والسياسية ويلقي على عاتقها مسؤولية تجعل منها أمة أمينة تخاف الله في السر والعلن ، وتتقي الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ثم لا بد هنا من سيرة انسان كامل يستطيع أن يكون إماماً وقدوة في كل شأن من شؤون البشر وفي كل عصر من

www.abulhasanalinadwi.org

العصور، وأن يكون مثلًا كاملًا في العبادة والتقوى والأخلاق، والسلوك والسياسة والاجتماع وفي السلم والحرب والرضا والغضب والضعف والقوة، وفي الحيـــاة المنزلية والزوجية، والفردية والاجتماعية ويصلح ان يكون المثل لأخ ووالد وزوج وصديق وقاض وأمير وغني، وفقير وتاجر وحاكم وقائد جيش؛ وعاهل أمة. ذلك هو محمد ﷺ الذي لا يزال المثل الوحيد للبشرية في أطوارها ومختلف أدوارها، ثم لا بد لتلك السيرة ان تكون محفوظة بتفاصيلها وأن تكون وثيقة تاريخية لا يشك فيها.

ثم تتبـع ذلك وتعضده تراجم رجال اهتدوا بتلك السيرة واحتذوا بهـا في عصر زاه متمدن، في اكـبر مراكز الحياة والمدنية، مع حمل أعباء الحكومة واحتمال تـكاليفها، ولم تزل قدمهم عن صراط الأخلاق والمبادىء، ولم تفتنهم فتنة المال والقوة ولم تمل بهم صهباء الحكومة والسيادة عن حياة الزهد والقناعة، أولئك أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم بإحسان.

هذا مع شرائع عـادلة للمجتمع الإنساني، وآداب حكيمة للأخلاق، وأحكام واضحة للسياسة، وحدود فاصلة للحياة، وإذا حافظت عليها أوروبا كانت بنجوة عن رهبانية المسيحية، ومادية العصر وغلو البراهمـة، وتطرف الفرس وتقشف الرواقيين، وغلظة الرومان، وخلاعـــة اليونان. هنالك تحل الإنسانية والفكرة العالمية محل القومية الوطنية، والإيثار مكان الأثرة،

www.abulhasanalinadwi.org

والإقتصاد بدل الإسراف والقناعة بدل الشره والنهامة ، والهدوء والسلام بـدل القلق والإضطراب ، والتعاضد والتعاون بدل الشره والنهامة ، والهدوء والسلام بـدل القلق والإضطراب ، والتعاضد والتعاون بدل التنافر والتناحر ، والإخلاص والصفاء بدل النفاق والبغضاء .

ان هذا المعين الصافي للحياة على كثب من اوروبا وفي متناول يدها ، ولكن الاستقاء منه يحتاج الى شجاعة كبيرة وذلك ما تحجم عنه اوروبا ويروغ عنها سادتها و كبراؤها، إنهم يستطيعون ان يدمروا الشعوب والبلاد ، ويحولوا العالم كـــله الى خراب ويشاهدوا الامم تخوض الغمرات ، وتعاني السكرات وتثقلها الجراحات، ويشاهدوا حضارتهم تنتحر بخنجرها وينهار صرحها، ويتداعى قصرها ولكنهم لا يستطيعون — لكبرهم وعنادهم — ان يعترفوا بأنهم أخفقوا في مهمتهم ، وأن حضارتهم قد أفلست وأن سياستهم قد خابت وأخفقت ، وان علومهم قـد أضرّت بهم ، وان عقولهم قد خدعتهم ، انهم لا يزالون يحكمون الخونة الجائرين ، ويخضعون للزعماء الجاهلين ، والحكماء الفاسقين ، ويرجعون في التداوي الى الأدعياء المشعوذين ، ولكنهم يأبون أن يرجعون الى أمي ﷺ وما ذلك إلا لأنهم رفعوا الستار عن أسرار الكون وسخروا البرق والبخار ، وملأوا الدنيا كتباً في كل علم وفنّ ، فكيف يسوغ لهم ان يراجعوا من لا يعرف

www.abulhasanalinadwi.org

صناعة الكتابة ولا يعلم فن القراءة ! ان مثل هذا الكبر والأنانية دفعت أجيالاً من البشر الى الهـــاوية وذلك هو داء أوروبا العضال .

أما الأخطار الشرقيه التي تقتفي أثر أوروبا في كل شيء فهي أسوأ حالاً من أوروبا ، لأن هذه الأقطار الشرقية قـد أفلست قديماً في دياناتها وروحها ، وفقدت بقايا الوحي والنبوة ، ولم تصل إلى ما وصلت اليه أوروبا من العلم والعقـل والوعي السياسي ، والشعور بالواجب ، والإخلاص في القومية أو الوطنية ، والمحافظة على النظام ، فليس لها في حياتها العملية قوة روحية ولا شريعة سماوية كما أنه ليس عندها ما تمتاز بـه أوروبا من العلم والمدنية والتربيـة السياسية والاخلاق الاجتماعية ، فاذا عاشت أوروبا بفضل نظامها واتقان شؤونها ردحاً طويلًا من الزمن ، فإن هذه الأقطار لم تكد تنال استقلالها حتى غشيتها الفوضى في السياسة والإجتماع ، والإنحـلال والفساد في الأخلاق ، وفشت الخيانات وعمت الرشوة وانتشرت السوق السوداء وضـج الناس من جور الحـكام وبطشهم ، وخيانـة الوزراء وإسرافهم ، وبطالة العمال وجناياتهم ، واحتكار التجار ومغالاتهم في الأثمان وعيل صبر الناس وسئموا الحياة وتمنوا الهجرة من الأوطان .

إن دواء هذه العلل التي أصيبت بها هذه البلادُ هو مخافة الله عز وجل والإيمان بالبعث بعد الموت ، ولكن هـذه المخافة لن

www.abulhasanalinadwi.org

تصدر من فلسفة مهما كانت قديمة مرت عليها العصور ، ولا من شعر مهما علق بالنفوس ، ولا من تاريخ مهما كان مؤثراً رائعاً. إن مصدر هذه النفسية ومنبع هذا اليقين هو الدين الذي جاء به الأنبياء في عصورهم ، وجاء به محمد ﷺ للأبد ، ولا تزال أبوابه مفتوحة لكل طارق .

يحتوي تاريخ كل بلاد على تعاليم عالية وحكم سامية وأمثال فائقة للمروءة والكرم ، وروايات شائقة للإيثار والتضحية والوفاء والسماحة والأمانة والشجاعة ، ولا بأس أن تذكر هذه المآثر في الحفلات التاريخية والمجامع العلمية ولا بأس بأن يغتبط بها الإنسان ويرويها ويتغنى بها في الشعر والأدب ، ولا ريب أنها تراث ثمين يجب أن تحتفظ به الحكومات الوطنية وليستفيد منه المؤرخون والمؤلفون .

أما استخراج عجلة الحياة الإنسانية الثقيلة التي غاصت في الوحل فلا يمكن بالعلوم الإنسانية ولا المعاني الشعرية ، ولا النكت الأدبية ، ولا الروايات التاريخية ، ولا البحوث الفلسفية ، ولا النظم السياسية ، ولا يمكن تحويلها من جهة الشر إلى الخير وتسييرها على الخط الأخلاقي الدقيق ، إلاّ بقوة الدين المتغلغل في الأحشاء ، الراسخ في الأذهان ، الذي يملك على الإنسان مشاعره ويقهر شهواته ، وكل يعلم كيف غاصت هذه العجلة في القرن السادس المسيحي وأعيى الناس أمرها حتى قطعوا منها

www.abulhasanalinadwi.org

الرجاء ، هنالك جاء محمد ﷺ لا يملك قوة مادية ، ولا يملك وسائل التعليم والدعاية والطباعة فدفعها بقوته النبوية وقوة الدين الذي جاء به ، والإيمان الذي يدعو إليه ، فوثبت من مكانها ، ولم تزل سائرة بالركب الإنساني هذه القرون المتطاولة ! إن هذه القوة لا تزال كامنة في هذا الدين الخالد والكتاب المحفوظ ، وهي على استعداد تام لإنجاد البشر وإغاثة الأمم ، إذا أرادت الأمم ذلك وطابت به نفوسها .

نرى الناس كيف يسعون في علاج سقيمهم وكيف يرجعون في ذلك إلى كل طبيب ، بقطع النظر عن جنسيته ووطنيته ودينه ، ولا يألون في ذلك جهداً ، فلا تقف في طريقهم العصبية ولاتمنعهم القومية والوطنية عن إتخاذ طرق التداوي واستخدام الأطباء من اختلاف أجناسهم وأوطانهم .

كذلك على قادة الأمم المريضة والساهرين عليها أن يعملوا ويجتهدوا في التماس دوائها والسعي لشفائها ، فكارثة أمة بأسرها أفجع من كارثة أسرة أو فرد ، وإن حق الأمم المريضة على قادتها وزعماءها أكبر من حقوق المرضى على ممرضيهم وأقاربهم ، فلا يستغرب إذا نقبوا لذلك في البلاد ، واتخذوا في الأرض نفقاً وإلى السماء سلماً ، وغاصوا في البحار يلتمسون لها الدواء ، لكن لا حاجة إلى هذا التنقيب والعناء فالإسلام أقرب إليهم

www.abulhasanalinadwi.org

من ذلك وأيسر ، وهو مستعد دائمـــاً لإنجادهم إذا اتسعت له صدورهم وطرحوا العصبية جانباً ، والقرآن يخاطب أبناء القرن العشرين كماخاطب أبناء القرن السادس المسيحي قائلاً: «لقد جاءكم من الله نورٌ و كتابٌ مبين يهدي به الله من اتبـع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنـــه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم ».

www.abulhasanalinadwi.org

بين الإنسانية وأصدقائها (١)

تحوي الأساطير الهندية كثيراً من الحكم ، ويبدو لنا أن حكماء هذا القطر قد أعربوا عن دقائق الفلسفة في لغة سهلة وأسلوب جذاب ، وحاولوا نقل الحقائق الجافة إلى الحياة العامة ، وبإمكاننا أن نتلقى دروساً قيّمة في الفلسفة والحياة بواسطة هذه الأساطير المتواضعة .

ومن الأساطير والحكايات التي حدثتنا بها في الصغر الأمهات وعجائز البيت أسطورة امرأة شقية كان جسمها حافلًا بالإبرات السامة ، وتولت ضرتها اقتلاع هذه الإبرات فاقتلعتها إبرة إبرة

---

(١) مقال للمؤلف ، كتبه أصالة في « اردو » ونقله الى العربيه الأستاذ محمد الرابع الندوي ، وظهر في مجلة « الثقافة » التي كانت تصدر من القاهرة تحت اشراف المرحوم الدكتور أحمد أمين .

www.abulhasanalinadwi.org

وتظاهرت بالشفقة والاخلاص وتركت إبرات العينين عمداً فبقيت المرأة تتململ من شدة الألم لاينطبق لها جفن ، ولا تكتحل بنوم ؛ ونحن بصدد هذا الجزء من الحكاية فحسب .

إذا فكرت في الإنسانية وأصدقائها ودرست أحوالها لوجدت قصتها تشبه قصة المرأة البائسة تمام الشبه ، قد تمزق جسمها بالإبرات السامة التي دخلت في جميع هيكلها ، فتمتد أيدي الغوث والرحمة إليها لتقتلعها ، ولكنها تغفل العينين اللتين لا يقر قرار الرجل إلا بسلامتها ، فلا يتم خلاصها ولا يهدأ بالها ، فتغدو وتروح جريحة الهيكل كليمة الروح مضطربة البال ، ثم تستأنف الجهود من غد وتنقطع من غير أن تكمل مهمتها وتبلغ غايتها .

الإنسانية تمثل الجسم البشري في أعضائه وأجزائه فهي جامعة للنواحي الحيوية بأسرها ، وإنها تنتظم الجسم والبطن والرأس والقلب، والروح والنسمة ، وتحل بهذه النواحي أنواع من البلاء والشقاء ، وهي إبرات جسمها التي تشقى بها وتتجرع على أيديها مرارة الحرمان والألم .

الفاقة والبؤس وفقدان المواد الغذائية الصالحة هي إبرات البطن والمعدة التي تشقى بها الإنسانية وتتعذب ، ومن الشقاء للعالم البشري ومن المخجلات المنديات أن لا تجد أغلبية البشر

www.abulhasanalinadwi.org

الساحقة ما تسد به فاقتها وتشبع به بطنها لسوء تصرف حفنة من البشر في توزيع المواد الغذائية، او لعسف حكومة جائرة، رغم سخاء القدرة الالـهية، وثروة الحقول الزراعية، وأن لا تجد البشرية حاجتها من الطعام والغذاء بعد أن تفيض الحقول زرعاً وتدر الأرض لبناً وعسلاً.

الانسان جسد مع الروح، والجسد يشعر بالحرارة والبرودة، فهو دائماً في حاجة إلى الكسوة واللباس، وقد أنزل الله لباساً يواري سوآت النـــاس وريشاً، وألهم الانسان كيف يزرع القطن، وكيف ينسج الثوب، واشتغلت الأيدي العاملة في الحقول والمصانع، فكانت كميات فائضة من القطن والنسائج، فمن الجور الفاحش والظلم المبين أن يُلجىء إسراف بعض الرجال في الملابس أو احتفاظهم بها في صناديق ومستودعات كثيراً من الناس إلى العري، أو يكسو الأغنياء جدرانهم، فلا تجد الفقراء من اللباس ما يستر جسمهم ويقيهم البرد والحر.

ان المرء يحمل في جنبه قلباً نابضاً له رغبات وعواطف طبيعية لا ضرر فيها ولا اعتداء، فلا يجوز أن يقف الانسان سداً في سبيلها، وقد وهب عقلاً وذكاءاً. فلا يجوز لأحد أن يمنعه عن العلم ويحول بينه وبين التفكير؛ فاذا فعل ذلك فرد أو حكومة كان الإنصاف للإنسان المرهق وتحرير فكره، خدمـــة بارة للإنسانية، وعملاً يستحق الشكر والثناء.

www.abulhasanalinadwi.org

الثقافة لا تزدهر ، والمدنية لا ترتقي وقوى الرجل الروحية والمادية لا تنمو أبداً، إذا كانت في البلاد سلطة مستبدة وحكومة غاشمة، فنرى ان الحكومات الأجنبية والدول المستبدة تستولي على وسائل الحياة وتتولى توزيعهـــا ، فطوراً تستأثر بها وتارة تقسمها قسمة ضيزى ، وأخرى تحول بين الأمـة وبين منتجاتها وثمرات كدحها وخزائن أرضها، فتعيش في ديارها عيش الغرباء أو الصعاليك الطرداء ، فـلا تلبث ان تخمد عواطفها ، وتجمد قرائحها وتضيـع مواهبها فتكون أمة خامدة ضائعة ، فلا شك أن الاستعمار والاستبداد عدو لدود للانسانية وظلم عظيم للأمة وأن جلاءه من بلاد نعمة وسعادة تستحق الأمة عليها كل تهنئة .

إذن فالجوع والعري والأمية والاستبداد هي الإبرات التي لا تفتأ تجرح الجسد البشري وتؤلمه ، ومن الواجب إزالة هذه الآفات وتخليص الأمة منها .

ولكن هل هذه الكروب والآلام هي جـل آفات البشرية وهي إبرات جسمها فحسب؟ واذا قلعت هذه الإبرات اطمئنت القلوب، ونعمت الأبدان،وقرت العيون، وصفا العيش، وطاب النوم ، وزالت الهموم والأكدار ، ورجع كل شيء إلى نصابه ؟

لقد كان الخطب يسيراً أجدا لو كان ذلك ، ولكن الأمر مع الأسف ليس كذلك ، والواقع لا يؤيده .

www.abulhasanalinadwi.org

ان القوت واللباس والعلم والحرية ليست كل شيء في الحياة وليست دواء كل داء ، إن في جسم الإنسانية إبرات سامة غير الإبرات المذكورة وهي تجرح قلبه وتذيب حشاشته . خذ مجتمعاً قد وصل الى كل مطلوب ، وقضى كل حاجة في نفسه فنال الحرية والاستقلال وجمع بين العلم والأموال واجتمع له كل ما يمكن من أسباب السعادة المادية والهناء ، هل تراه هادئاً مطمئناً لا يشكو ولا يئن ؟.

الأمر ليس كذلك كما تعرف جيداً ، بل ربما يكون هذا المجتمع السعيد أشد قلقاً واضطراباً وأكثر شكوى وعتاباً من غيره ، فما السر في هذا ؟

سر ذلك أن الإنسان قد يظهر في بطنه الطبعي بطن كاذب ، وهو بطن الجشع والشح الذي لا يزال صائحاً مثل جهنم « هل من مزيد ؟ » إنه لا يعشق المال لأنّه قنطرة إلى حاجاته أو شهواته — على الأكثر — بل قد يكون غرامه له كغاية ونهاية، هنالك لا يطفىء غلته أعظم مقدار من المال وأعظم مجموع من الدراهم والدينار ، بل يركب رأسه في شدة غرامه وولوعه بالمال ويرتكب كل محظور ومنكر لأنه قد فقد الحاسة الخلقية وحرم الضمير والعقل ، وجن بالمال جنوناً ، وأحقر مظاهر هذه النفسية والطبيعة الغريبة السوق السوداء ، والارتشاء الرخيص ، وابتزاز الأموال من كل وسيلة وطريق

www.abulhasanalinadwi.org

إذا درسنا تاريخ العالم الخلقي درساً عميقاً وفحصنا في أسباب الفوضى الاجتماعية والانحلال الخلقي فحصاً دقيقاً ، وفكرنا في رؤوس المسائل والمشكلات التي تواجه الحياة القومية والاجتماعية اليوم وجدنا أنها لا ترجع الى الضرورات والحاجات الطبيعية في غالب الأحوال بـــل إلى الرغبات الباطلة والحاجات الكاذبة والشهوات المصطنعة في الغالب ، وهذه الشهوات التي تغري صاحبها بالمحظورات والجنايات وتتولد منهـــا أزمات طريفة ومشكلات معقدة في الحياة المدنية وفي كل نظام حكومي وتحث على الاعتداءات والتدليسات والخيـــانات والعسف والارتشاء والمقامرة والاكتناز والاحتكار والخداع، وتتورط لأجلها أعظم الدول والأمم في الفوضوية واللادستورية .

لو بحثت في الأزمات والمشكلات، لاقتنعت بأن تعسر مطالب أغلبية ساحقة وكثرة الجيـاع العراة في بلاد ليست هي علة الاضطراب واختلال الحياة الاجتماعية ، إن هؤلاء الجيـاع والعراة لم يضيقوا على النـــاس ولم ينغصوا عيش أحد في القطر اولئك هم الطاعمون الكاسون الذين لا تشبـع أنفسهم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ولا تنقطع رغباتهم ، هم الذين ملأوا الدنيا فساداً واضطراباً ، إن قائمة الحوائج الصادقة ليست بطويلة جداً كما يتوهم بعض الناس وكما يغالط أكثرهم ، ولكن قائمة الحوائج الـكاذبة لا حـــد لها ولا نهاية ، وهي تستمر في

www.abulhasanalinadwi.org

الازدياد والتضخم على مر الأيام والليالي ، وقد تتضخم حتى لا تكفي لرجل واحد ثروة هائلة ، ثروة حارة بل ثروة مدينة بأسرها بل وزيادة .

لماذا هذا الغلاء الفاحش واختفاء الاشياء والتضخم النقدي ؟ أ لأنّ أغلبية البلاد جائعة عارية ؟ لا ! بل لأن شهوة المادة قد طغت وتخطت كل حد ، وبلغ غرام الثراء حد الوله والجنون ، وامّحت القناعـــة من الحياة ، وتسرّب الصلف والرياء وحب الجـاه والزينة في جسم المدنية فأحال الحياة إلى الشقاء ، وصير الدنيا داراً للعذاب والبلاء ، فنواجـه في كل منعطف ومنعرج ارتشاءاً مسرفاً وسوقاً سوداء وأرباحاً جائرة .

لكن هل ترتكب هذه المخطورات لأن الجوع أو العري قد جاوز حده ؟ لا ! إنها أعمال طبقة فضلت أقواتها وملابسها عن حاجاتها ، واجتمع عندهـــا من الكماليات وفضول الحياة وأدوات الزينة والفخار شيء كثير . إنك لا تجد في هذه السوق السوداء فقيراً لا يملك قوت يومه ولباس جسمه ، ألا إنها لأفاعيل أصحاب اليسار والأموال الذين قد حيزت لهم الدنيا بأطرافهـا وحذافيرها ثم لا رادع لهم عن الخيانة واختلاس أموال الناس .

إن حاجات الإنسان الطبعية الصادقة خطبها يسير ، وإنه لسهل أن يجد كل إنسان في بلاده ما يشبعه ويكسوه وكل ما يحتاج إليه في حياته ، ولكن هـــل تستطيع دولة من الدول

www.abulhasanalinadwi.org

الكبيرة أو شريعة من الشرائع العادلة أن ترضي حفنة من السكان في حاجاتهم الكاذبة ورغباتهم الباطلة ؟ وهل تقدر أن تشبع بطناً واحداً يشكو الجوع الكاذب، والذي لا يشبع وإن أكل رزق الناس أجمعين ! .

فإذا كانت المسألة مسألة الرغبات المختلفة لا الرغبات الصحيحة، وإذا كانت العلة الاشتهاء الكاذب لا الاشتهاء الصادق فهل تقدر فلسفة اقتصادية أو نظام معاشي قد تكفل الطعام واللباس فقط ولا يتعرض للضمير الإنساني ولا يغير نفسية المجتمع وطبيعته والذي يشعل الحس المادي ولا يعدله أن يحمل مجتمعاً واحداً على الرضاء والقناعة وهدوء البال ؟ وهل تستطيع كذلك أن يطلق سراح الحياة من الأزمات الراهنة بعد أن أخذت بالخناق وأناخت على المدنية بكلاكلها .

إن الارتشاء والسوق السوداء والغلو في الأرباح والجنايات ليست إلا نتيجة نفسية تدين بعبادة المال والتفاني في سبيله ، ولن يقف هذا الفساد عند حد إذا لم تتغير هذه النفسية ، بل إذا سد باب في وجه فساد تتفتح له عشرة أبواب على مصاريعها ، لأن الذهن البشري له نوافذ وأبواب كثيرة كلما سد منه منخر جاش منخر .

إن علة المدنية الحاضرة وداءها العضال أنها دست سموم الأثرة

www.abulhasanalinadwi.org

والشح وعبادة النفس في شرايين المجتمع وعروقه ، فأصبح ضميره لا يؤمن إلا بالفائدة الشخصية والنفع العاجل ، فيرتكب أكبر رجل في هذا المجتمع أشنع جريمة ، فاذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر ، وإذا حكم جار ، وإذا كان وزيراً آثر ذوي قرابته ، وأفاد نفسه وعشيرته وأصدقاءه وأضر بأمته وحكومته ، وإذا كان موظفاً ماطل وتساهل وأبطأ في العمل حتى يرضخ له شيء من الدريهمات فينشط ويخف للعمل ، وإذا كان ممثلاً في مجلس أو عضواً في هيئة لم يمثل إلا شخصه ومصالحه ، ولم يفكر إلا في فائدته فيوقع لأجله بلاده وشعبه في خسارة فادحة ، وإذا كان تاجراً أقام السوق السوداء على قدم وساق ، وارتكب لزيادة ثروته وتضخيم ماله كل ما تأباه الفضيلة والمروءة ويمنعه القانون ، فيجوع لأجله ألوف من الرجال ولا يبالي ، وقد يرابي الناس فيلقي على مئات من الفقراء أثقالاً من الديون الفادحة ، فيحتاجون إلى مليم واحد وقرض واحد ، ولا يجدون إليه سبيلا .

وغلب شيطان الأثرة على الدول والأحزاب بعد أن كان مستولياً على الأفراد والرجال ، فالأحزاب السياسية ممعنة في الأثرة والعصبية الحزبية ، أما الجمهوريات الأوروبية والأمريكية فقد جرت منها الأثرة مجرى الروح ، فتدوس الدويلات الصغيرة بقدمها وتمتهن حريتها وكرامتها ، وتحرمها متعة الحياة وتجعلها لها مستعمرات وأسواقاً لبضائعها وصنائعها ، فحولت هذه الأثرة

www.abulhasanalinadwi.org

العالم كله إلى متجر أو كور حداد، لا ترى فيه إلا تعاطياً في الدرهم والدينار أو سحائب من النار والشرار ، والأرض كلها إلى ساحة حرب واسعة ، وقد استهان أصحابها في سبيل منافعهم بالعهود والذمم ، واستحلوا أشنع جريمة وأكبر جناية ، إذا اقتضت ذلك ظروف وأحوال، فيقتل ألوف من البشر بأمرها، وتسيطر دولة على دولة أخرى ضعيفة بأسباب مختلقة وعلل واهية، وتباع أمة لأمة أخرى بثمن بخس دراهم معدودة كالضأن والغنم، وتنقل من يد إلى يد كالرقيق والجماد ، وتقطع بلاد موحدة — يجمع بينها الدين واللغة والحضارة والقومية — قطعاً كالثوب ؛ هذه الأثرة القومية الأوربية التي هاجت العرب ضد الأتراك — وكلهم مسلمون — فلما أتموا دورهم في الحرب الكبرى وكتبوا سطوراً لنصر الحلفاء بدمائهم أشاحوا عنهم وتناسوهم، واقتسموا بلادهم كالمال السائب أو تراث ميت، حتى إذا أرهقتهم الأحوال واضطروا إلى منح الاستقلال أقاموا في سوريا الصغيرة أربع دويلات مستقلة ثم زينوا لليهود « الوطن القومي » وألهموهم تأسيس دولة مستقلة وقدموا إليهم كل مساعدة حتى اذا أصبح وطن اليهود أمراً واقعاً وقامت دولة إسرائيل تصادمت مصالحهم وأهواؤهم وتضاربت الأثرة بالأثرة ؛ وما مسألة فلسطين اليوم ، وما تعقدها والتواؤها إلا نتيجة أثرة بريطانيا وأمريكا وروسيا القومية ونتيجة تنافسها في استغلال الشعوب ومنابع ثروتها

www.abulhasanalinadwi.org

والسيطرة على الشرق الأدنى ، كذلك حدث في الهند ، فقد استغلتها بريطانيا، حلبت ضرعها قرناً، فلما أخذت بالجد وألجأتها الأحوال الدولية إلى أن تمنح الهند الاستقلال عاملت هذه البلاد التي عاشت عليها دهراً شر معاملة ، فأشعلتها ناراً على أهلها ولم تغادرها حتى جعلتها مذبحاً يقتل فيه بعضهم بعضاً ، ولم يكن ما صدر من أهل الهند سنة ١٩٤٧ عام الاستقلال إلا بإلهام الأجنبي وتدبيره الخفي ، ونتيجة الأثرة والتربية الخلقية التي نشأ عليها أبناء هذه البلاد قرناً كاملا في ظل الانجليز ، التي اخذتهم بهـــا السياسة الانجليزية، والفلسفة الأوربية والنزعة الجنسية التي جاء بها الأوربيون .

ثم تلك الأثرة الجاهلية قد بعثت في العالم كله وفي نواحي البلاد كلها طبيعة المطالبة بالحقوق والتهاون بالواجبات، فقام كل واحد في المدينة يطلب ماله على غيره ولا يؤدي ما عليه لغيره ، ونشأ الناس ، ومردوا على التطفيف ؛ « إذ اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » فأحدثت هـــذه العقلية الغربية في جميع الأرض نزاعاً بين الأفراد ، وعراكاً بين الأحزاب ، وجدالاً بين الطبقـــات ، وصراعاً بين الجماهير والحكومات، وظهرت ثورة عنيفة في العمال والتجار ، والفلاحين والموظفين ضد الحكومات ، وعمت الاضرابات والتهديدات والاضطرابات في المدن ، وكل يبالغ في حقه ويجفى في المسألة،

www.abulhasanalinadwi.org

ويتغافل عن واجبه ويخون في وظيفته ، حتى صارت الحياة سلسلة من مطالبات ومصارعات ، وأصبحت الحياة حبلاً ممدوداً يتجاذبه الفريقان من طرفيه .

مهما بالغنا في ذم هذه الأثرة والتذمر منها وتوجيه اللوم إلى هذه المدنية وقادتها ، فان سبب هذه الأثرة الجارفة ، والمدنية الشقية بأهلها واضح جلي ، فاذا كان الاعتقاد السائد أن لا حياة بعد هذه الحياة الفانية ولا نعيم بعد هذا النعيم الزائل والعهد الراحل، وإذا كان أدبنا وفلسفتنا وبيئتنا كلها لا تحدثنا إلا عن المادة وحدها ، وتخضع لأصحابها خضوع الذليل المستكين ، وتتغنى بمجدهم وتحث على اقتفاء أثرهم وتقليدهم في الحياة، وتنكر كل حقيقة دينية وخلقية ، وإذا ماتت فكرة الحياة بعد الممات وإذا تركت القيم الخلقية والحقائق الفاضلة ميدانها للقيم المادية الجسدية ، وإذا تضخم الجسم والبطن على حساب القلب والضمير حتى وسعا الحياة كلها وحجبا الحقائق الخلقية والمعاني الروحية، فكيف لا يصير الرجل في هذا المحيط مادياً محضاً ، وكيف يؤخر ربح الحاضرة وثمراتها للغد الموهوم ؟ وكيف يستبقي ويدخر لذته وهناءه للآخرة التي لا يؤمن بها ؟ إنه إذا لم يؤمن بالعزيز الجبار العليم الخبير الديان المهيمن الرقيب الذي هو مالك يوم الدين والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فكيف يتردد في استخدام الوسائل التي تهيىء له عيشاً رغيداً وجاهاً

www.abulhasanalinadwi.org

عريضاً ، ومالاً ممدداً .

ولما حصرت الفلسفة السياسية المادية حياة الإنسان في القومية والوطنية . واستخفت بكل من يعطف على بني آدم عامة ويواسيهم ، وكل من يؤمن بالحياة الآخرة الخالدة ، وكل من يحب الانسانية ولا يتقيد بوطن أو جنس، أصبح – إذا ارتفع عن الأثرة الشخصية والمنافع الفردية – لا يفكر إلا في مصالح وطنه ومنافع شعبه ، وقد تصل به هذه الوطنية والقومية إلى الاحتلال والاستعمار والقسوة والهمجية ، فيرى من واجبه الوطني والقومي المقدس ، ومن وفائه لأمته وتفانيه في سبيلها أن يؤسس دولة أمة على أنقاض دولة أمة أخرى، وعلى أشلائها، وهذه هي الوطنية التي حدت بأوربا المتمدنة إلى استعمال كل قسوة ووحشية في توسيع ممتلكاتها وإخضاع الأمم والشعوب لدولها وسياستها حتى انتهى بها ذلك إلى استعمال المدمرات والغازات السامة ، وإلقـــاء القنابل الذرية في الأخير واختراع (Hydrogen Bomb) وأشد منها أيضاً .

هذه الأثرة بمعناها الواسع هي آفة المدنية الحاضرة وجائحة زرعها ، فما دامت هذه الأثرة روح الاجتماع والسياسة وأساس المدنية والأخلاق ، فلا تفيد التنظيمات والاصلاحات والمشاريع الاقتصادية والعمرانية الجديدة ، ولا تغني شيئاً ، واذا كانت

www.abulhasanalinadwi.org

الأثرة متغلغلة في أحشاء المجتمع ، جارية مجرى الروح ، وهي التي تملي على الناس سياستهم وسلوكهم ، وإذا كان الأفراد في أمة يتنافسون في الشهوات ، ويتهافتون على اللذات ، ويتطاولون في القصور والناطحـــات للسحاب ، ويتسابقون في اقتناء أفخر السيّارات ، ويتسابقون في أسباب الترف والرخاء ، ومظاهر العظمة والثراء ، وإذا كانت قائمة الحاجات المختلقة والرغبات المصطنعة تتضخم كل يوم لم يفد الأمة غناها ووسائلها وتنظيمها الاقتصادي ، ولم تكفها مواردها ومنابـع ثروتها ، مهما كانت واسعة ضخمة ، ولا يفيدها أن تمطر السماء ذهباً وتلفظ الأرض خزائنها — من مناجم الذهب ومنابع البترول — فإن كل ذلك لا يفي بحاجاتها المختلفة المتجددة ، ولا يغني فقراءها ولا يشبع جياعها ولا يكسو عراتها ، فترى فيها على ثروتها الهائلة وأموالها الطائلة فوجاً من الفقراء لا يجدون من الطعام ما يقيم صلبهم ، ومن اللباس ما يكسو عورتهم ، أهذا الجوع القاتل والعري الفاضح الذي ترى مناظره المخجلات على الشوارع العامرة بالقصور ، المزدحمة بالسيارات لفقر البلاد وضيق مواردها وقلة وسائلها ؟ إذاً فمن أين هذه الناطحات للسحاب من القصور ، والمباريات للريح من السيارات ؟ ولماذا هذه الجولات إلى عواصم أوربا وأمريكا ؟ لا والله ليس ذلك إلا لهذه الأثرة — قاتلها الله — التي حالت بين الفقراء وبين حظهم من العيش وحقهم من الحياة ،

www.abulhasanalinadwi.org

والتي ابتلعت موارد البلاد وأموالها فلم تترك للفقراء ولا للبلاد شيئاً .

لقد أصبح المجتمع الانساني اليوم جسماً متورماً يستسمنه الجاهل وما هو بسمين ، إنما هو ورم غير طبعي ، فقد بلغ شأواً بعيداً في الزخارف والكماليات وضخامة الميزانيات ، وقلت الأمية وشاع العلم في كثير من الأقطار ، وتساوى الناس في لمعيشه وأسبابها في بعض الأقطار أيضاً – كما يقولون – ولكن الواقع أن هذه الدوحة التي تراها قائمة – دوحة المدنية والمجتمع الإنساني – قد أصابتها دودة أكلت كبدها ونخرتها ، فهي متآكلة جوفاء،وهذه الدودة الخبيثة هي الأثرة التي تزين للإنسان الظلم وتحمله على الاعتداء ، فإذا بقيت هذه الدودة تأكل كبد المجتمع وتنخر جسمه حبطت الجهود الإصلاحية ، وضاعت المشروعات الإقتصادية ، وما دامت هذه الدودة تفعل فعلها فلا تنفع الأمة « الاشتراكية » و « الشيوعية » ولا تؤثر في الحياة تأثيراً كبيراً ، لإن الأمة قد نشأت على الأثرة وحب المـــال المفرط وحب الحياة الزائد، ولا تمتنع من الظلم والاعتداء لأجل تنظيمات اقتصادية وعقوبات مدنية ، فإن هنا ميادين غير ميدان الإقتصاد يستطيع المرء فيها أن يظلم أخاه ويغتصب حقه ، واذا لم يستطيع ذلك فانه يقدر أن يؤذيه ويعاكسه على الأقل ، فلا طريق إلى العدل والسلام ، والهناء الكامل إلا أن تقتلع جرثومة

www.abulhasanalinadwi.org

الأثرة والشح والاعتداء من قلوب الناس وعقولهم ، وذلك لا يقدر عليه إلا الدين المسيطر على الروح والقلب ، الدين الذي يحث على الاقتصاد في المعيشة والزهد في الدنيا ، ويمنع الانسان من الاسترسال في الآمال والآماني والانهماك في اللذات والشهوات والاسراف في الأكل والشرب ، ويحض على الإيثار على النفس مع الخصاصة وإنفاق العفو من المال ، ويحض على طعام المسكين ، والحدب على اليتيم ، وينعي على الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ويأكلون التراث أكلا لمّا ويحبون المال حباً جماً ، ذلك هو الدين الكامل العادل الذي ينقذ الإنسانية من كل بلاء، ويقيم عوجها، ويرتق فتقها ، ويأسوا جراحها .

إن الشعوب أو البلاد التي استقلت في آسيا في الزمن الأخير لا تزال معرضة عن حقيقة ناصعة ، وهي أن رفاهة البلاد وسعادة الشعب ليست من كثرة الوسائل والآلات واكتشاف موارد المال ومنابع الثروة وازدهار الصناعة والزراعة وكثرة المصانع وتقيد أوروبا وأمريكا في تنظيماتها وإن كان لا بد من ذلك ، ولكن الرفاهية الحقيقية في صحة المقاصد والغايات وحسن استعمال الوسائل والآلات وفي اعتدال الحياة وقلة الحاجات ، وحب العدل والمواساة ولن يحصل هذا من طريق الآلات والماكينات ومن طريق التنظيمات الاقتصادية والنظم

www.abulhasanalinadwi.org

السياسية ، ولكن من طريق التربية الدينيـة وبتأثير الدين الصحيح ، والتعليم الصحيح ، ولئن كانت الوسائل والآلات والتنظيمات ضامنة برفاهة البلاد وسعادة الأمة وهدوء بالها لكانت أوروبا وأمريكا وروسيا أرفه بلاد الله ، وأطيبها عيشاً ، وأقلها كدراً ، وأنعمها بالاً ، وأرضاها بالحياة ، وأبعدهـا من القلق والاضطراب ، والشكوى والعتاب ، ولكانت جنة في الأرض لا خوف فيها ولا حزن ، ولكن الأمر بالعكس ، فمشكلات هذه البلاد وأزماتها وصراع الأحزاب والنزعات فيها ، وتذمر الناس من حياتهم وعدم رضاهم عن مدنيتهم ، وبحثهم عن هدوء البال وسكينة القلب حتى في الشرق وأديانه أمر معلوم .

إنا لا ننكر الفضل للأيدي التي تحاول إراحة البشرية المعذبة وإسعافها بازالة تلك الإبرات عن جسدها ، ولكن لا سبيل إلى الطمأنينة الدائمة والسكينة التامة إلا بقلع إبرات العيون ، إن الحصول على الحرية والاستقلال عمل جليل وهدف سام جداً ، والجهاد في سبيل مكافحة الفقر والجوع والعري والأمية والجهل ، وإلغاء المظالم والاعتداءات الاقتصادية والاجتماعية ، والحصول على وسائل الحياة حسنات لا تنسى ، وأياد بيضاء لا تنكر ولكن الإنسانية أوسع من هذا ، وإن الإنسان أكثر من المعدة والبطن والجسد والعقل ، إن في جسده مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسم كله ، ألا وهي القلب ،

www.abulhasanalinadwi.org

فالمهم الأهم هو صلاحه ، هدوؤه واعتداله وحياته ، فهل فكر المفكرون في هذا ؟ وهل وجدوا إليه سبيلا ؟.

فقد تسابقت أيدي الإنسانية الرفيقة لقلع إبرات الجسد وقد عُنيت بإبرات البطن والمعدة فاقتلعتها وأراحت الإنسانية منها ، ولكنها ما فطنت لإبرات العيون التي هي أصل البلاء وبذرة الشقاء ، والإنسانية تئن أنين الثكلى ، وتهتف بابنائها وأنصارها، وتنادي : إليّ يا أبنائي البررة ، أسعفوني وخلصوني من العذاب الذي أتجرعه ولا أكاد أسيغه ، ويأتيني الموت من كل مكان ، وما أنا بميت ، وأريحوني من وجع الفؤاد وألم العين الذي شرد نومي وأقلق بالي، وامسحوا ما بي من علة حتى أعيش قرير العين ناعم البال مطمئناً .

فهل من مجيب ؟!

www.abulhasanalinadwi.org

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
رسالة الإنسانية للشرق والغرب	١٤
إلى الشعب الألماني	٣٢
حديث مع الشباب المسلم المتعلم في الغرب	٤٤
إلى الشباب المسلم المقيم في ديار الغرب	٥٥
إلى قيادة من نوع جديد	٦٧
قصة الأمم الراقية مع رسالات الأنبياء	٨١
بين الإنسانية وأصدقائها	١٠٦

www.abulhasanalinadwi.org